الفصل الثاني

نهاية النشاط الناصري

محاولة انقلاب ناصرية في ١٨ تموز

بالعودة إلى تطور الأحداث، بعد توقيع الاتفاق الثلاثي، نرى أنه في العراق شُغل زعماء الثورة بأنفسهم، فقد اعتقلت حكومة العراق في ٢١/ ٥/ ١٩٦٣م خصومها وزجَّتهم في السجون. وفي ٢٢/ ٥/ ١٩٦٣م أُعدم أحد عشر شخصاً بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم.

ولم يكن الحال أفضل بين أطراف السلطة في سورية، قادة انقلاب ٨ آذار، ما جعل عبد الناصر يستاء من تصرفات البعث في سورية ويرى أنه سرق الثورة منه... وسورية تهمُّه أكثر من العراق، ففي استعادتها ردٌّ لكرامته، وعودة إلى قيادة العالم العربي. فبدأ بإعداد انقلاب عسكري معتمداً على الضباط الناصريين المسرَّحين وبقاياهم في الجيش.

كان المخطِّط الرئيس لعملية الانقلاب العقيد المسرَّح جاسم علوان. وهو كما رأينا عند الحديث عن انقلاب ٢٨ أيلول ١٩٦١ في كتابنا الأول، كان قائد اللواء ٧٢ المعتمَد لمنع أي انقلاب، وشكَّل له اشتراك لوائه في الانقلاب يومها عقدة نفسيَّة، ما جعله يسعى لاستعادة ثقته بنفسه ومكانته لدى عبد الناصر، فاشترك في محاولة الانقلاب الفاشلة في حمص بعد ٢٨/ ٣/ ١٩٦٢م، ثم انتقل إلى حلب، ولم يستطع هناك أيضاً السيطرة، ولم يتعاون معه ضباط البعث. وكان يحلم بعد انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣م أن يحصل على مركز، أو وزارة، فهو من أقدم الضباط الناصريين وأكثرهم كفاءة، ولم يستطع الحصول على شيء، ولذلك لم يكد يأخذ الضوء الأخضر من عبد الناصر حتى باشر بإعداد خطة انقلاب جديد.

كانت خطة الانقلاب تعتمد على عناصر قليلة من الجيش، وعلى كتيبة

الفدائيين الفلسطينيين. فقد كان العقيد هشام شبيب رئيس أركان سلاح الإشارة، أحد قادة المؤامرة، وكان مقرُّه في مدرسة الإشارة القريبة من الأركان، ويمكن أن يؤدّي خدمات مهمة للحركة، ولديه بعض العناصر التي شاركت فعليّاً في الحركة، ولكن الاعتماد الأكبر كان على عناصر المهمّات الخاصة من الفلسطينيين والفدائيين، بقيادة ضابطين شجاعين، هما المقدمان: الهيثم الأيوبي، وأكرم صفدي. ونقيب اختُلف في دوره لاحقاً، هو النقيب محمد نبهان. وتقضي الخطة بتوزيع أسلحة فردية على المدنيين (الفدائيين) من سرية خدمات الأشغال العسكرية بالتواطؤ مع بعض العناصر فيها.

كما اعتمدت الخطة على عنصر المفاجأة بحسب رأي واضعيها. فقد حدَّدت ساعة الصفر الساعة ١٢ من يوم الخميس ١٨ تموز سنة ١٩٦٣م، وذلك لأنه جرت العادة أن تجري الانقلابات بعيد منتصف الليل. وتحسُّباً لأي انقلاب كان الضباط البعثيون يسهرون الليل وينامون صباحاً، فيستيقظون متأخرين نهار اليوم التالي. كما أن الإجازات القصيرة (٢٤ ساعة) تبدأ ظهر الخميس مع بدء العطلة الأسبوعية (الجمعة)، ما يخفِّف الحذر، وبخاصَّة عند تغيير القائمين بالخدمة الذي يجري في هذا الوقت. فأراد واضع الخطَّة استثمار نقاط الضعف هذه.

وبناء على هذه الخطة بدأت العناصر المدنية، ومعظمها كما ذكرنا من الفدائيين الفلسطينيين، ابتداء من العاشرة صباحاً بتسلُّم أسلحتها من سرية خدمات الهندسة بسرّيَّة تامة، والانتشار في البساتين المواجهة لمبنى القيادة العامة.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة بدأت هجومها على المبنى المذكور، وعلى مبنى الإذاعة الذي كان يحرسه سليم حاطوم، فتصدت لها عناصر حراسة القيادة بقوَّة، ما يدل على أنها كانت على علم بالهجوم، فاتخذت التحضيرات اللازمة لصدِّه. وأكَّد لي صديق يعمل في وزارة الإعلام أن الموظَّفين لاحظوا استعدادات القوّات المحيطة بالإذاعة للقتال منذ الصباح الباكر.

وقبل سماعنا الطلقات الأولى، كنّا نستمع إلى الراديو، فقطع المذيع البرنامج المقرَّر وأعلن أمراً عُرفيّاً بمنع التجوُّل منعاً باتّاً ابتداء من تلك اللحظة.

وقبل تكرار الأمر انقطعت الإذاعة عن البثِّ ولم تعد إليه إلا بعد ساعتين، ثم بدأنا نسمع أصوات رصاص المعركة التي لم تستمر طويلاً، واستطعنا معرفة اعتقال ضابط أُدخل إلى غرفة مدير السجن، وسمعنا أصوات تعذيب وصراخ. . . وأعلَمَنا مدير السجن أن الضابط هو محمد نبهان، وأنه اعترف بكل شيء، وأنه الآن يشرب القهوة ويدخِّن مع المحققين.

من المهجع إلى مستشفى السِّجن

في هذه الأثناء جاءنا مدير السجن المساعد أول عيسى[1]، وأعلمنا بأنه تلقَّى أوامر بوجوب تحضير أماكن لمعتقلين كثيرين سيتم إحضارهم، وقال لي ولخليل بريز إنه يوجد مكان لشخصين في مستشفى السجن الذي يقبع فيه رئيس الوزراء معروف الدواليبي وكبار الضباط، وأنه سألهم عمَّن يرغبون في أن يكونوا معهم من الضباط الصغار، فاختاروني[2]، وكان خليل بريز سبقني إلى المستشفى بسبب إضرابه عن الطعام. وتم بسرعة إخلاء مهجعنا وتوزيع الموجودين فيه على المهاجع الأخرى، وانتقلت أنا وخليل إلى مستشفى السجن.

وكان نصيبي أن أتقاسم الغرفة مع العميد موفق عصاصة، بينما وُضع خليل في غرفة الدكتور معروف الدواليبي. ولم أكن أعرف عصاصة سابقاً إلا في لقاء عابر في القيادة مساء يوم حركة ٢٨ أيلول ١٩٦١م. ومن معاشرته أياماً في السجن وجدته إنساناً رائعاً جمَّ التواضع، حسن الأخلاق، يؤدي الصلوات الخمس ويمارس الرياضة كلَّ نهار.

---

(١) كان المساعد عيسى ذا ميول ناصرية، ولكنه كان يعاملنا بأخلاقية عالية، ويتباسط معنا في الحديث، وبخاصة بعد أن رأى ما يحدث للناصريين الذين أصبح قسم منهم نزلاء عنده. وكان يُكِنُّ لي احتراماً خاصّاً من يوم تولَّيت حماية السجن، وكان هو مديره كما ذكرت في كتابي الأول ص١٦٧ وما بعدها.

(٢) من المضحكات التي أذكرها أن أحد أفراد دورتي من سلاح المشاة، وأنا من سلاح المدرعات، احتجَّ لدى مدير السجن بأنه أقدم منّي درجة في الدورة، فكيف يتم نقلي إلى قسم الضباط الكبار والسياسيين في المستشفى ويُترك هو في المهجع، أعلمني بذلك مدير السجن معلِّقاً: صاحبك يظنُّ نفسه في الخدمة وليس في السجن.

ومع ذلك فقد كنت أمضي أكثر الوقت مع خليل بريز ومعروف الدواليبي والعقيد هيثم مهايني الذي كنت أعرفه سابقاً في غرفتهم، وكنا نستمتع بأحاديث الدواليبي، السياسي وأستاذ الجامعة الخبير بالسياسة السورية، وبتاريخ سورية، والذي، بحسب رأيي، ظُلم في حياته السياسية كثيراً؛ لأنه كان عنيداً مخلصاً لبلده، لم يخضع لإرادة الغرب. وربما نقلت في هذه الذكريات ما سمعته منه في السجن وبعد السجن. وبخاصة أنه لم يترك مذكرات، وما نشرَه بعضهم عن لسانه كان ممسوخاً ولم يُنصفه.

النقيب نبهان وفضح العملية

ذكرت ما شاهدته، أو سمعته، في السجن عن النقيب نبهان، وأرى من واجبي توضيح دوره؛ لأنه اختُلف فيه كثيراً، وبخاصة لكونه من الطائفة العلوية، فهو سُجن مدة بسيطة لغاية ١٩٦٤م ثم أُطلق سراحه بمرسوم عفو خاص، بينما كان المفترض أن يُعدم مع الذين أُعدموا في الساعات الأولى للقضاء على الانقلاب.

يقول طلاس: «إنه فور إلقاء القبض على المذكور من قِبَل المخابرات العسكرية، ذهبت الرفيقة سعاد عبد الله وشقيقتها دعد، زوجة المتَّهم، إلى منزل الأستاذ المناضل زكي الأرسوزي، ودخلتا عليه.. وتوسَّلتا إليه.. بأن يتدخل لإنقاذ المتَّهم محمد نبهان مقابل تعهُّد خطّي بأنه سوف يقدِّم لشعبة المخابرات كل ما يعلمه عن المؤامرة. وهكذا تمت الصفقة، وأصبح لدى القيادة تصوُّراً واضحاً لكل خفايا المؤمراة»[1]. ولكن أمين الحافظ يؤكِّد في شهادته على العصر أنهم كانوا على علم بالمؤامرة، ويدَّعي في الحلقة التاسعة أنه اقترح على قيادة الحزب اعتقال المتآمرين، وقبل يوم التنفيذ أرسل مفارز لاعتقال قادة الحركة كلِّهم، فلم يجدوا أحداً في منزله، وهو لـمَّح إلى أن نبهان أعطى معلومات كاملة، ولكنه لم يكن واضحاً ما إذا كانت المعلومات التي قدَّمها نبهان قبل اعتقاله أو بعده.

أما أحمد أبو صالح، عضو مجلس قيادة الثورة يومها، والوزير اليساري

(١) طلاس، م. س، ج٢، ص٤٣٤.

المتطرِّف، فقد أكَّد بعد عودته إلى رشده، في الحلقة السادسة من شهادته على العصر، في جوابه لأحمد منصور، أنه لما طلب صلاح الضللي، رئيس المحكمة، الموافقة على إعدام جاسم علوان وعدد من الضباط، بينهم محمد نبهان، رفض محمد عمران الموافقة إلا بعد حذف اسم محمد نبهان منها.

فسأله أبو صالح عن سبب الرفض، فأجابه: الإخوان بيعرفوا، ويقصد صلاح جديد والعسكر، فقال أبو صالح: «يا أخي أنا بدي أعرف، أنا كمان موجود وعمَّ بأتحمل مسؤولية! فقال ـ أي عمران ـ: نحن داسينه في صفوف الجماعة وعمَّ بينقل لنا الأخبار، وهو اللي جاب لنا ساعة الصفر...».

وقد حامت يومها شبهات كثيرة حول كون نبهان مدسوساً على الحركة، وذكر الحوراني في مذكراته: «أما السبب الثاني لفشل محاولة جاسم علوان الانقلابية، فهو أنها كانت مخترَقة من قِبَل النقيب محمد نبهان الذي كان مخبراً»[1]. ولا يمكن الجمع بين هذه الروايات وما شاهدته وسمعته إلا بأحد أمرين: الأول: أن يكون ما سمعناه تسجيلاً صوتيّاً. والثاني: أن يكون اعتقل في مكان الحادث، ولم يكن المحققون على علم بحقيقته، فبدؤوا التحقيق معه بطريقتهم. ولما علموا بحقيقته أوقفوا التحقيق معه، وبدأ هو يعطيهم معلومات كاملة ودقيقة عن قيادة الحركة وخطَّتها والمشاركين فيها.

حركة مكشوفة

أكَّد أمين الحافظ الذي رُفِّع في ١٠ تموز ٦٣ إلى رتبة لواء، وأُسندت إليه رئاسة الأركان ووزارة الدفاع بالوكالة، أن القيادة كانت على علم بالحركة وتحضَّرت لها، وربما في هذا الإطار كانت تصفية الحريري وجماعته، وترفيع الحافظ وإعطاؤه صلاحيات كبيرة لتمكينه من قمع الحركة المحتملة من الناصريين، وبخاصة أنه كان مشهوراً برجولته ورعونته.

كما روى لي أحد الزملاء (ممدوح رحمون)، الذي كان يشغل منصباً رفيعاً ومن ذوي الميول الناصرية، وكان يُؤوي في بيته أحد زعماء الحركة (أكرم صفدي) الذين سيقومون بالتنفيذ، أنه اكتشف تَسرُّب معلومات عن الحركة إلى

---

(١) الحوراني، م. س، ج٤، ص٣٢٠٠.

القيادة، فسعى إلى لقاء جاسم علوان وأعلمه بأن الحركة مكشوفة، فلم يعلِّق. وأعلم كذلك أكرم صفدي، فكان جوابه أنهم واثقون من النجاح.

وبعد سنوات التقى رحمون في القاهرة، هو والسَّرّاج، بجاسم علوان، فسأل السَّرّاج علوان عن رواية (ممدوح) بأنه أعلمه باكتشاف أمر الحركة قبل يوم من تنفيذها، وتوجَّه إليه متسائلاً باستغراب: هل هذا صحيح؟ فأجابه: صحيح. فدُهش السَّرّاج وسأل: كيف تقومون بحركة مكشوفة؟ فكان الجواب الصاعق: «لأن الرئيس يريد أن يخطب في ٢٣ تموز وتكون الوحدة قد عادت، ولذلك كنا مستعجلين».

وللقارئ تحليل الحدث.

محاكمات صورية وإعدامات[1]

انتهت المعركة خلال ساعات قليلة، وسيطرت القيادة على الوضع، وسقط عدد كبير من المهاجمين قتلى وجرحى، واعتُقل قسم منهم، وهرب آخرون، وكان أهم الهاربين: الهيثم الأيوبي وأكرم صفدي، اللذان قادا الفدائيين في الهجوم على مبنى القيادة (الأركان العامة)، بالإضافة إلى قادة الحركة: العقيد جاسم علوان، والعقيد رائف المعرّي، واللواء محمد الجراح وغيرهم.

وكنا نشاهد من شرفة مستشفى السجن وفود المعتقلين تساق إلى السجن

---

(١) كتب صديق (خ.ب) حاشية على مسودة هذا الكتاب يقول فيها: «جمعتني ظروف السجن مع المقدَّم في الشرطة (م.م)، وكان قبل سجنه مديراً لمكتب أمين الحافظ، فقال لي: إنَّه حين حدثت محاولة ١٨ تموز أمره أبو عبدو أن يضع قانون تشكيل المحكمة العسكرية العرفية العليا، ليتم محاكمة الذين عملوا في ١٨ تموز. فقال لي: وضعت صيغة قانون عرفي لتشكيل المحكمة، وخلافاً لكلِّ قوانين العالم، وضعت في ذلك القانون ما يلي:
١ ـ تجري التحقيقات في السجن ثم صدور الأحكام وتنفيذها.
٢ ـ لا يُسمح بوجود محامين للدفاع عن المتهمين.
٣ ـ تنفَّذ الأحكام فوراً وفي السجن، ولا تُعاد الجُثث إلى أهالي أصحابها.
فقلت له: وكيف فعلت ذلك؟ فكان جوابه، وبكل وقاحة: هذه رغبة الرفاق، ونحن عندنا في الحزب رغبة الرفاق أمر يجب أن ينفَّذ بلا تأخير، أو اعتراض أحد ما» انتهت حاشية الصديق.

ابتداء من عصر ذلك اليوم زرافات ووحدانا... وجوه مذعورة لا نعرفها، أشخاص حُشروا في الكميونات كالأغنام أو الأبقار، مدنيون وعسكريون من رتب مختلفة، ضباط كبار ورتباء وعساكر... كثيرون جاؤوا بهم لأنهم كانوا يسيرون في الشارع ولم يسعفهم الوقت للوصول إلى بيوتهم والالتزام بمنع التجوّل. واستمرَّ نقل الناس من عصر ذلك اليوم وطول الليل، حتى ضاق بهم السجن. وعلمنا أن سجن الشرطة العسكرية قد امتلأ أيضاً، وحُوِّل قسم من الجامعة إلى معتقل، وكذلك معرض دمشق الدولي، وأُنشئ في كل معسكر سجن، في القابون والكسوة وقطنا، فغدت دمشق مأتماً حزيناً صامتاً، تحبس الدموع ولا تستطيع النشيج.

وخلت المدينة أياماً وليالي من المارَّة باستثناء عناصر الحرس القومي والعساكر البعثيين الذين أخذوا يعيثون في المدينة فساداً، فكشفوا بذلك عن وجه البعث الوحشي اللاأخلاقي واللاإنساني، بكى يومها كل مَن في دمشق، لا تأييداً للمعتقلين ولا رحمة بهم. بل حزناً على الإنسانية، ورثاءً لسورية التي عرفها الناس ودفنها البعث.

مضى الليل بطيئاً رهيباً، فلم تُغمَض الجفون إلا من الإرهاق، فقد كان في كل بيت فاجعة. في كل بيت إما قتيل، أو سجين، أو ملاحَق، أو مجهول المصير...

وفي مساء ذلك اليوم الرهيب ظهر على شاشة التلفزيون السوري سفّاح كان مجهولاً يومها، هو أمين الحافظ، الذي شكَّل واجهة للذين خرَّبوا سورية وقضوا على جيشها، فتحدَّث عن المؤمراة، وهدَّد وتوعَّد بقطع الأعناق وتكسير الرؤوس، وسحق المتآمرين، وأعلن تشكيل مجلس عرفيٍّ برئاسة صلاح الضللي، ينعقد في سجن المزة بشكل دائم حتى ينتهي من محاكمة المتآمرين. وأذكر من أعضاء المجلس سليم حاطوم ومحمد رباح الطويل...

يوم سقط القناع

وأشرقت شمس يوم الجمعة في ١٩ تموز ١٩٦٣م باهتة خجولة، ويا ليتها لم تشرق على أولئك المجرمين. وقفت وخليل برّيز على شرفة مستشفى السجن ننتظر وصول الجلّادين، رئيس المحكمة وأعضاء مجلسه...

وبدأت السيارات تتوافد. كلٌّ عضوٍ دولةٌ قائمة بذاتها. سيارة تقلُّ صلاح الضللي وخلفه موكب من عدة سيارات محمَّلة بجنود مدجَّجين بالسلاح لحمايته، وأخرى لاند روفر يستقلُّها سليم حاطوم بلباسه المرقَّط، يتبعها عدد من السيارات المكشوفة الملأى بالمغاوير بألبستهم المبرقعة وأسلحتهم الأوتوماتيكية، وهم يشكِّلون عادةً النخبة في كل جيوش العالم، ويكلَّفون بمهمات خاصَّة ضدَّ العدوِّ.

ومجموعة سيارات تحمل في أولاها الملازم أول محمود حمرة وحرسه، وأخرى تُقِلُّ محمد رباح الطويل ومرافقيه... وحضرت سيارات كثيرة أقلَّت عدداً من الضباط السكارى بالخمر، وبنشوة الانتصار على زملائهم في الانقلاب، القائمين بالحركة الفاشلة، حضروا ليتلذَّذوا بالجرائم التي يقترفونها بحقِّ رفاقهم وبحقِّ شعبهم، وكان منهم رئيف علواني، وسهيل حسن ميهوب، وخالد رسلان، وإبراهيم العلي، وم. ونّوس[1]... حضر هذا الثائر وقد وضع على رأسه «شماغاً» أحمر، واستلقى تقريباً على المقعد الخلفي، ومعه حرسه الخاص، وحضر غيرهم كثيرون، نماذج مختلفة، وشخصيات عجيبة. وتنوَّعت الحركة، فمنهم الداخل، ومنهم الخارج. ولم تمضِ إلا دقائق على دخول أعضاء المجلس إلى إحدى الغرف، التي كنا نسترق النظر إليها، إلا وخرج منها العقيد هشام شبيب[2]، حاسر الرأس منزوع الرتب، وقد سار خلفه محمود حمرة وعدد من العساكر المسلَّحين ببنادق. وفي الوقت الذي اتجهت أنظارنا جميعاً إليه قال أحد الزملاء: إنهم أخرجوه ليلتقطوا له بعض الصور التلفزيونية،

---

(١) التحق الملازم م. ونّوس بالجبهة عندما كنت أخدم فيها، بعد تخرُّجه من مصر أثناء الوحدة، وعندما وزَّعت قيادة الجيش مسدسات براوننغ على الضباط، أخذ المذكور يلهو بمسدسه كالأطفال عندما يلهون بلعبهم، وقد وجَّهه إلى أحد زملائه، وكان هذا الأخير من خيرة الضباط، ومن أوائل دورته، ووحيد والديه، ولم يخطر في باله أن زميله لا يتقن استعمال المسدس، كمن لم يرَ مسدساً في حياته، يمناه على الزناد ويده الأخرى تسوق الطلقة إلى بيت النار. فخرجت الرصاصة لتستقر في عنق المسكين الذي لفظ أنفاسه خلال ساعات.

(٢) هو من خيرة الضباط، ضليع في اختصاصه، أنفق عليه الجيش أموالاً طائلة لاتباعه دورات عدَّة في الخارج على مختلف الأجهزة اللاسلكية، وأظنُّه من أصل فلسطيني.

وقال آخر بعد أن وصل إلى باب السجن: إنهم يذهبون به إلى المدينة للتحقيق، ولم يخطر في بال أحد منّا أن التحقيق انتهى، والمحكمة أصدرت حكمها، والرئيس صدَّق الأحكام[1]، والمحكوم إنَّما يساق إلى الموت.

وبعد خروجه من باب السجن الرئيس التفت إلى الملازم حمرة يسأله إلى أين؟ فأشار إليه برأسه أن يتجه نحو اليسار، فتوجَّه إلى حيث أشار إليه، وكان في تلك الجهة وادٍ يقع إلى شمال السجن. ولم يكد يختفي عن أنظارنا حتى قال أحد الزملاء: لا ريب أنهم اقتادوه إلى حيث ينفِّذون به حكم الإعدام. فاستغربنا جميعاً ذلك الكلام، ولكن لم يطل بنا الاستغراب، فما هي إلّا ثوانٍ حتى دوى في المكان صوت عدة طلقات حملت في طياتها الموت لرئيس أركان سلاح الإشارة في الجيش العربي السوري... وقد علمنا فيما بعد أنهم لم يمهلوه حتى يصل إلى المكان المحدَّد الذي رسموه في أذهانهم للإعدام، بل قالوا له: اذهب وقِفْ هناك أمام ذلك العمود، فسار نحو العمود وهو يردِّد: «لا شكَّ أن اليهود أفضل منكم». وقبل وصوله بخطوات أطلقوا عليه النار من الخلف، وما هي إلا دقائق حتى رأينا بعض الجنود يحملون جثَّته إلى إحدى السيارات، ويُلقونه فيها، في الوقت الذي خرج فيه محمد رباح الطويل يسوق شخصاً آخر، وبعد دقائق كانت جثَّة الثاني تُلقى في السيارة ذاتها، وأقدام الثاني على رأس الأول. ويبدو أن بعض العساكر في هذه الزمرة تأثَّروا، ففاضت أعينهم بالدمع، وربما كان الطويل منهم؛ لأننا رأيناه يعود مطأطئ الرأس... كما يظهر أن المحكمة العرفية استشعرت بطء التنفيذ، فهي تريد أن تقتل أكبر عدد ممكن في ساعات محدودة، فأوكلت إلى سليم حاطوم أن يتولى التنفيذ بعناصره الذين ربما كانوا كلّهم بعثيين ثوريين... فإذا بهم يخرجون بأربعة أشخاص معاً، وينفذون فيهم الحكم خلال خمس دقائق، ولا أعلم حتى الآن ما الذي خطر في بال أولئك الجلّادين حتى أخذوا ينزعون عن المساكين ملابسهم[2] باستثناء السراويل،

---

(١) لم يكن الرئيس يومها الفريق لؤي الأتاسي في سورية، بل كان في القاهرة لإقناع عبد الناصر بعدم إلغاء الاتفاق الثلاثي في خطابه بعد أيام في ٢٣ يوليو، ذكرى الثورة المصرية.

(٢) ربما أزعج الجنود حمل الجثث وقد امتلأت ألبسة أصحابها بالدماء.

ويقودونهم إلى الإعدام عراة. وقد علمت من مدير السجن لاحقاً أنهم كانوا يودّون نزع السراويل أيضاً، ولكنه رجاهم عدم نزعها، فوافقوا، وهكذا كان المحكومون يخرجون مجموعات عراة، وكانوا كلما قتلوا عدداً من الأشخاص يذهبون بجثثهم إلى المستشفى العسكري في المزَّة، القريب من السجن.

في هذه الأثناء حضر إلى السجن المقدم أحمد سويداني، وأظنه كان مديراً للشرطة العسكرية، وتوجَّه إلى مكان تنفيذ الأحكام، فسمع أصوات المؤذِّنين لصلاة الجمعة تُردِّد صداها الجبال وتختلط بأصوات رصاص الغدر يوجَّه إلى صدور أناس هو من أعرف الناس بذنوبهم، وبما بُيِّت لهم، وكأنّي به تهيَّب الموقف، ولم يتمالك أعصابه، فهرع إلى غرفة مدير السجن ليتصل بأمين الحافظ، ويطلب منه تأجيل تنفيذ الإعدامات، ولكن الحافظ أسمعه ما لا يرضيه، وأصرَّ على متابعة الإعدامات أثناء صلاة الجمعة.

وخلال ساعتين تقريباً نُفِّذ حكم الإعدام بستة عشر منهم، فكان نصيب الواحد منهم ربع ساعة للتحقيق والمحاكمة وإصدار الحكم وتنفيذه، وكانت إذاعة دمشق تذيع أنباء المحاكمات والإعدامات إرهاباً للناس... ثم جرت إعدامات أخرى بعد استراحة الغداء، بحيث ارتفع عدد الذين نُفِّذ فيهم حكم الإعدام في ذلك اليوم إلى واحد وعشرين شخصاً. وكما ذكرنا كانوا يساقون إلى ساحة الإجرام أفراداً وجماعات، ومنهم مَن كان يسير إلى مكان إعدامه بخطىً ثابتة، ومنهم مَن كان يتقدَّم ذاهلاً شارداً، وكأنه غير مُدرك أو مُصدِّق لما يحدث، وبعضهم كان يلتفت إلينا، على شُرفة ما يُسمى مستشفى السجن، وكأنه يطلب النجدة ممَّن هم يحتاجونها، وأذكر محكوماً فلسطينيّاً خرج من باب السجن بخطى ثابتة وهو يشتم السفاحين، ويصفهم بأبشع الصفات، وقيل لنا إنه توجَّه إلى حيث يجب أن يقف مسرعاً وأدار وجهه إلى فرقة الإعدام وكشف عن صدره، وقال لهم: أطلقوا، وشتمهم بأبشع الألفاظ. بينما كان آخر يصرخ: قولوا لأولادي إنني بريء.

وكذلك صرخ أحدهم، وهو النقيب محمود رشيد[1]، أنه بريء، وطلب

(١) هو من أهالي قطنا، تخرَّج من الكلية العسكرية سنة ١٩٥٦م. متديّن، خلوق، معروف =

من سليم حاطوم، ابن دورته وزميله، أن يستمع إليه، قائلاً له إنه لا علاقة له بالمؤمراة. . . فاستهزأ به، ولم يكد ينهي كلامه حتى استقرَّت رصاصات الغدر في جسده، وخرَّ صريعاً.

ومن غرائب الأمور أن رفاق سليم حاطوم أعدموه بعد سنوات قليلة في المكان نفسه[١].

وكان النقيب رئيف علواني يتبرع أحياناً بإطلاق ما يسمونه «رصاصة الرحمة» على رؤوس المحكومين بعد تنفيذ الحكم فيهم. ولا أظنه كان ضمن المجلس العسكري، وهو من دورتي، وكان يدَّعي الوحدوية، ولكن الوحدة عنده كما وصفتها في كتابي الأول: «حرمتونا نساء مصر ـ وقالها لي بلغة جنسية أخجل من ذكرها ـ ومن المعاش الإضافي». . . وقد وصفه وليد حمدون في كتابه «ذكريات وآراء»، وذكرت ذلك في كتابي الأول[٢]. وربما كان دافعه الظهور بمظهر البعثي المتطرف بعد أن تقلَّب كثيراً. وقد عدَّد طلاس أسماء بعض من أُعدموا، ومنهم:

«المساعد بحري كلش، والمساعد شحادة مسعود، والرقيب سلطان محمد سلطان، والرقيب جهاد الأطرش، والمساعد حسين غنيم، وغيرهم[٣].

وأكثر ما أثَّر فينا رؤية الفلسطينيين الفدائيين الأبطال، المهيئين لأعمال خلف خطوط العدو، يساقون إلى ساحة الإعدام، وقد أبدوا شجاعة، قلَّ

= عنه أنه بعيد عن الأحزاب والسياسة. وما نُقِل إلينا عنه أنه قال لسليم: «يا سليم أنت ابن دورتي، ولا أحد يسمع لي كلاماً، فوَالله إني بريء»، فأجابه سليم: «مشّيها هالمرة». ولا أستطيع تأكيد ذلك أو نفيه.

(١) سأتحدث عن إعدام سليم حاطوم بالتفصيل لاحقاً.

(٢) رحلة العمر (القرية الشامية ـ الحياة العسكرية، الوحدة والانفصال)، دار النفائس، بيروت، ط١ سنة ٢٠١٣، ص٣٥٠.

(٣) طلاس، مرآة حياتي، م. س، ج٢، ص٤٣٣ وما بعدها. وقد ذكر أكرم الحوارني رواية عن السيدة نعمت فوق العادة (الناصرية) أنه قبض عليها يوم محاولة الانقلاب، وأراد صلاح الضللي رئيس المحكمة إعدامها، ولكن رباح الطويل قال: لن أسجل على نفسي أنني اشتركت بأول إعدام سياسي لامرأة في سورية. وبهذا نجَتْ من الإعدام. [الحوراني مذكرات، م. س، ج٤، ص٣٢٠١].

نظيرها، وهم يواجهون رصاص الموت بشتائم للمنفِّذين واتهامات لهم بالخيانة.

ومما لا أنساه في ذلك اليوم المشؤوم أنه عندما انتهت المرحلة الأولى من الإعدامات، واتجه أعضاء المجلس العرفي نحو باب السجن الخارجي، فإذا بعساكر يُدخلون موقوفاً، أظنه برتبة مساعد، فشاهدنا صلاح الضللي يمسك بغرَّته (شعر مقدم رأسه) ويشير إلى مفرزة الإعدام لتنفيذ حكم الإعدام به. لقد اقتصر التحقيق والحكم على ذلك المسكين بقول الضللي: «هذا هو.. خذوه...». ما يدلُّ على أن الأسماء كانت معروفة مسبقاً، والأحكام مقرَّرة...

ومما لا أنساه أيضاً أن معروف الدواليبي ناداني وخليل بريز قائلاً: «ادخلوا، لا تذكِّروهم فيكم»، ولم يكد ينهي جملته حتى نادى مدير السجن رقيباً كان وصل إلى منتصف الدرج: «ارجع، لا تحضر أحداً»، وعلمت منه مساء ذلك اليوم أنه سمع أعضاء المجلس يتساءلون فيما بينهم: كيف نعدم الناصريين، بينما يقبع الانفصاليون في غرفهم؟! فسارع إلى الاتصال بقائد الشرطة العسكرية أحمد سويداني. وقال له: إنهم يريدون أن يعدموا جماعة من السجناء الانفصاليين، وهم موقوفون لحساب القضاء ولا علاقة لهم بالمحاكمات الحالية، وأنا مسؤول عنهم. فاتصل سويداني بأمين الحافظ الذي أمر بعدم التعرُّض إلى الانفصاليين.

وقال لي مدير السجن أيضاً: إن المجلس طلب من الرقيب أحمد أن يحضر معروف الدواليبي والعقيد هيثم مهايني وشخصاً آخر نسيت اسمه، وأظنه العميد موفق عصّاصة، ولكن لحسن حظِّهم وصل اثنان من المطلوبين في تلك اللحظة، فأمر الضللي بعودة الرقيب ريثما ينفَّذ الإعدام بالقادمين الجُدد، ما أعطى مدير السجن الوقت الكافي للاتصال، ووصول الأمر إلى الحافظ. ولولا أوامره لأُعدم الثلاثة، وربما كنت أُلحقت بهم مع آخرين.

ومن المضحك المبكي أنه في ذلك اليوم كان حشاشان يتعاطيان الحشيش في بستان أمام مبنى القيادة على ضفة نهر بردى كعادة كثير من الحشاشين، ففي المكان خضرة وماء... ويبعد عن أعين الرقباء، ولما جرى تمشيط المنطقة، اعتُقل الحشاشان وسيقا مع الموقوفين إلى سجن المزة، فظنّا أن محاكمتهما بأمر

سياسي أفضل من محاكمتها بتهمة التحشيش، لكثرة ما يُحتقر الحشّاش في المجتمع السوري. وقدَّرا أن الحكم عليهما لن يتجاوز بضعة أشهر، ولكنهما لما رأيا أحكام الإعدام، أخذا يقسمان أمام المحكمة ويقولان: «والله يا سيدي نحن حشاشين ما لنا علاقة بالسياسة»، فضحك أعضاء المحكمة وأمروا بالإفراج عنهما فوراً. ورأيناهما يخرجان من غرفة المحاكمة مذهولان كالخارجَين من القبر.

وفي اليوم التالي حضر أمين الحافظ إلى السجن، ولم يزُرْنا، ولكن علمنا أنه أوقف الإعدامات التي كانت مستمرة.

وشهد شاهد من أهله

ولكي لا يذهب الظنُّ بأحد إلى أنني غاليت في وصفي ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم، أقتطع فقرات من كتاب لسامي الجندي، وزير الإعلام يومها، يقول فيه:

«انعقدت المحكمة العسكرية وأخذت تقتل. كانت المحاكمات فريدة عجيبة استمتع فيها الحزب جميعاً واعتبرها ثورية ونضالاً. ضرباً للروتين المتعارف عليه[1]. كان يُجَرُّ المتهم إلى الخشبة وتُعصَب عيناه، ويبلَّغ، أو لا يبلَّغ قرار المحكمة الشفهي، ثم يصدر الأمر ويُطلَق الرَّصاص.

. . . ذهبت مساءً إلى وزارة الإعلام كي أشرف على نشرات الأخبار والتعليقات، فجاءني أحد موظفي التلفزيون يقول لي: هنالك شريط أرجو أن تراه قبل إذاعته، لا أجرؤ أن اعترض عليه أنا، وأرجو ألّا يعلم أحد أنّي نبَّهتك إليه.

وفي استوديو التجربة رأيت ما لا يصدِّقه العقل. رأى أعضاء المحكمة أن يشترك الشعب بمباذلهم، فلا تفوته مسرّات النصر، فعمدوا إلى تسجيل مشاهد الإعدام من المهجع إلى الخشبة: عملية عصب العينين، الأمر بإطلاق النار، ثم يندلق الدم من الفم وتنطوي الركبتان وينحني الجسد إلى الأمام بعد أن تتراخى الحبال نفسها، وفمه مفتوح كي يقبِّل أمَّه الأرض.

لم أقل شيئاً. خرجت، فسألني أحد الضباط مرحاً:

---

(١) يسطِّر هذا الكلام؛ لأن سورية لم تعرف سابقاً مجزرة كتلك المجزرة.

ـ كيف رأيت يا دكتور؟

قلت: أهذا هو البعث؟

قال: لم أفهم.

أجبت: لن تفهم!

وإذا بالأستاذ البيطار يدخل لاهثاً، قال لي:

ـ هل صُوِّرت فعلاً مشاهد الإعدام؟

قلت: نعم.

قال للضباط الموجودين: إياكم أن تُنشر، إنها قضية عالمية. وظل هناك حتى قصَّ المختصون كل المشاهد المثيرة، ولكن بعض الصور تسرَّبت إلى خارج سورية.

أقنع بعضنا بعضاً أن التوتر كان سبب ما حصل، وأنها أزمة عابرة تنتهي خلال أيام. وأخذنا نسأل بعد ذلك فنسمع التأكيد بأن السجناء يرفلون في نعيم مقيم، لا ضرب ولا تعذيب، وصدَّقنا، ثم علمت بعد شهور عديدة أن الرفاق تعوَّدوا عادات جديدة، فأخذوا حينما يملّون رتابة حياة الآخرين، يذهبون إلى سجن المزَّة بكل وجوديتهم، فتُفرش الموائد وتُدار الراح، ويؤتى بالمتهمين للتحقيق، وتبدأ الطقوس الثورية، فيفتنُّون ويبدعون كل يوم رائعة جديدة. أظن «الدولاب» من اكتشافات آذار.

بقي أن نسأل: من هو المتهم؟ كل الناس... تقرير بسيط على ورقة رفاقية تبدأ بأمة عربية واحدة، وتنتهي بالخلود لرسالتنا تعني شهوراً في الزنزانة، وإنساناً محطماً مدى الحياة»[1].

هذه شهادة وزير الإعلام البعثي في ذلك الوقت، ولمن يرغب بالاستزادة فعليه الرجوع إلى مؤلفات المذكور. وقبل أن أودِّعه أقتبس جملة مما ذكره: «كنت أقرأ الصحافة وتقارير الخارجية، فرأيت أن دولاً كثيرة استقبلت نجاحنا بالترحيب»[2]. وللقارئ أن يحلِّل معنى ذلك.

---

(١) سامي الجندي، البعث، م. س، ص١٣١ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه ص١٣٤.

وقد جاء كلام الجندي ونقده ما جرى في تلك الأيام المشؤومة بعد إقصائه عن السلطة. وفعل مثله صلاح الدين البيطار رئيس الوزارة المنتهية صلاحيته، والذي اغتيل في باريس لاحقاً. وقيل إن ميشال عفلق صرَّح يومها بقوله: «هذا الحزب ليس حزبي...»، ولكن واقع الحال فهُم جميعاً، ومن كان معهم من المدنيين المستنكرين، قد غطُّوا أعمال العسكريين، وتحوَّل قسم كبير من مدنيي الحزب إلى أحذية يخلعها العسكريون عندما يريدون، وينتعلونها عندما يشاؤون. فما هكذا يكون الاعتراض، ولا هكذا يكون الاستنكار. وهذا لا يعني أن جميع البعثيين سيئون، ويقتضي الإنصاف أن نشير إلى أن البعث كغيره من الأحزاب، فيه الصالح، وفيه الطالح. وهذا الحزب بالذات جذبت شعاراته بعض المخلصين، وبخاصة من الأقليات، ولكنهم وجدوا أنفسهم عاجزين أمام مجموعة من الحاقدين، يتصرفون بالحزب كما يشاؤون، فاضطروا إلى الانسحاب من الحزب أو طُردوا منه.

الفصل السابع

حرب ١٩٦٧م

اختلف السياسيون العرب والمؤرِّخون في وصف الحرب بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٦٧م، فبعضهم وصفها بـ«نكسة»، وبعضهم قال: «هزيمة»، والبعث عدَّها نصراً لأنها لم تحقق أهدافها بإسقاطه، هذا من وجهة نظره، وأراها كارثة حلَّت بالعالم العربي والإسلامي، وكان كل ما بعدها مختلفاً عمّا قبلها.

وقد كُتب عنها الكثير الكثير، ومعظم كتابات العرب وصفت ما حدث، أو اكتفت بتوزيع الاتهامات، وتوصيف الخيانات[١]. وبحسب علمي لم تُشكَّل في أي دولة عربية لجان مختصة تدرس تلك الحرب بحرّيَّة وموضوعية من مختلف النواحي العسكرية وغير العسكرية، وتبيِّن أسباب الفشل ومكامن الداء، لتكون دليلاً وعبرة لقادة المستقبل.

ولا أدَّعي أنني سأدرس تلك الحرب، أو أنني مؤهَّل لذلك، ولا أؤرخها، وكل ما أهدف إليه وصف ما رأيت أو سمعت، وتأكدتُ منه، في سياق ذكرياتي ومشاهداتي، لأخذ العبر، ولفائدة الأجيال القادمة.

ولئن اضطررت إلى ذكر بعض الأسماء، فلا أقصد توزيع الاتهامات، فمعظم الذين سترد أسماؤهم أصبحوا في ذمَّة الله تعالى، وعنده الحساب العادل.

وعليَّ أن أعترف بأنني قرأت عشرات الكتب والمذكرات عن تلك الحرب لمؤلفين من مختلف الاتجاهات، وربما تشكلت عندي صورة واضحة لما جرى، وسأوجزها في هذا الكتاب.

---

(١) من الكتب المهمة التي وصفت المعارك، وتحدثت عن بعض أسباب الفشل من الناحية العسكرية: كتاب الفريق أول محمد فوزي «حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧/ ١٩٧٠، مذكرات الفريق أول محمد فوزي»، نشر دار المستقبل العربي.

وقبل الدخول في صلب الموضوع يجدر بي أن أذكر بعض الملاحظات:

أولاً: سأحاول أن أكتب بحياد وموضوعية، وآمل أن أستطيع ذلك، وأعتذر من القارئ إن بدت مني عاطفة، لم أستطع أن أخفيها، لأجمل بقعة فقدتها سورية، وأغنى بقعة، بالطبيعة الخلّابة والزراعة والأمطار والمعادن والآثار، والمياه العذبة الظاهرة والجوفية، فهي خزّان ماء لا مثيل له في المنطقة، أقصد هضبة الجولان السورية، هذا بالإضافة إلى أهميتها الاستراتيجية، ومناعتها العسكرية التي وفَّرَتها تضاريسها، وما أُضيف إليها من تحصينات جعلتها قلعة يصعب اختراقها. وقد خدمتُ فيها ضابطاً في سلاح المدرعات ثلاث سنوات، في القنيطرة، والصرمان، والخشنية، والجوخدار. ولصخور الجولان وترابه وجداوله حنين وذكريات. فكم تمشيت في أرجائه متنزهاً، أو مستطلعاً، أو مدرِّباً عساكري على الرمي والقتال. وكم اختلط عَرَقي بترابه وأنا أحفر مع عساكري حُفراً للدبابات تقيها رمي طائرات العدو وقنابله. وباختصار إن جزءاً من روحي باقٍ في الجولان، ويرسل إليَّ مع نسائم الربيع أريج زهوره العطرة، ويُسمعني زقزقة عصافيره الرقيقة.

ثانياً: لن أتحدث عن يوميات الحرب الستة أو التسعة بالتفصيل؛ لأنني لم أشارك فيها، فقد كنت مسرَّحاً، هارباً، ملاحقاً، ومنفيّاً إلى لبنان. ولكنني عشتها ساعة بساعة ولحظة بلحظة على الإذاعة والتلفزيون. وقد تحدَّث كثيرون بالإضافة إلى الصحف والمجلات عن يوميات تلك الحرب، ولعلَّ أدَّقها كتاب خليل بريز، ضابط استطلاع الجبهة السورية قبل الحرب[1]، وكتاب محمد حسنين هيكل الذي كان مستشاراً لجمال عبد الناصر[2].

---

(١) صدر كتاب خليل بريز باسم «سقوط الجولان»، ثم أتبعه بكتاب ثانٍ بعنوان «من ملفات الجولان»، وأما اسم المؤلف فقد ورد على الكتابين «خليل مصطفى». وقد كلَّفه كتاباه ثماني وعشرين سنةَ سجنٍ، تنقَّل خلالها بين أسوأ سجون سورية، وذلك بعد اختطافه من لبنان سنة ١٩٧٠م. وسأتحدث عن ذلك في موقعه.

(٢) كتاب محمد حسنين هيكل بعنوان «الانفجار ١٩٦٧»، وهو سِفْر كبير تجاوز ألف صفحة، تحدث فيه عن ما قبل الحرب، وحيثياتها، وتوسع كعادته بما يسمح خياله المعروف واستنتاجاته الخاصة وتحليلاته.

وأذكر ساعة أُذيع قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، وكذلك يوم صدر قرار ٢٤٢ الذي تضمَّن عودة إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها، وكنت في بيت محمود البرازي نسمع الأخبار سوياً، وهو سياسي مخضرم بعمر والدي، فأبديت سروري بتلك الفقرة؛ لأن الجولان سيعود، فقال لي: هذا حبر على ورق، وإسرائيل لن تنسحب من شبر واحد من الأراضي التي احتلتها. وكلُّنا يعلم ما حصل بعد ذلك والاختلاف بين ما حاول العرب تسويقه بإصرارهم على أن القرار يقول: «الأراضي المحتلة»، والقول الآخر: «أراضٍ محتلة» أي ليس كل الأراضي. ولا حاجة بنا للتوسع في ما حصل بعد ذلك وحتى الآن.

ثالثاً: لم تكن تلك الحرب وليدة وقتها، فإسرائيل دولة استعمارية توسعيَّة تحلم بأن تكون حدودها من الفرات إلى النيل، ومن ثمَّ تتحكم في المنطقة كلها، هذا إذا تجاوزنا عن نظرة اليهود إلى أنفسهم أنهم «شعب الله المختار»، والبشر كلهم أغيار، ويجب أن يكونوا في خدمة شعب الله.

وكلُّ ما يقال عن أن المناوشات بين سورية وإسرائيل هي سبب الحرب، أو أن إغلاق مضائق تيران هو سبب الحرب، فكل ذلك أسباب شكلية مباشرة، فقد كانت إسرائيل تهيئ الظروف للحرب، ولم ينتبه العرب إلى ذلك، وبخاصة عبد الناصر والبعث.

رابعاً: كان هدف إسرائيل الرئيس كسب أراضٍ جديدة، والمحافظة على قوة عسكرية تستطيع بها مواجهة الدول العربية مجتمعة. فهي تعرف أنها إن حيَّدت بعض الحكام، فعند أي حرب سيتوحَّد العرب ضدها، ولن يستطيع أي حاكم الوقوف على الحياد أمام الهياج الشعبي المعبّأ ضدها لما ارتكبته وترتكبه من جرائم ضدَّ العرب، حتى لو رفع الشيطان شعار المقاومة وتحرير فلسطين لكسب تعاطف العرب وتأييدهم.

خامساً: كان الجيش السوري مصدر قلق لإسرائيل قبل انقلاب ٨ آذار سنة ١٩٦٣م، وبخاصة عندما جرَّبَتْهُ في معركة «تل النيرب» التي تحدثت عنها في كتابي الأول، وكانت تدرك العمق الاستراتيجي السوري الذي يمتد إلى العراق، إن كان البلدان على اتفاق، فعملت قبل الدخول في أي معركة جديدة على تصفية الجيشين من خيرة ضباطهما، وقد تحدثت عن ذلك في مكانه.

سادساً: العالم كله يهاب الإسلام، والعرب في غالبيتهم مسلمون، وتحطيم العرب تحطيم للمسلمين، والعالم الذي أوجد إسرائيل بقرار أممي يكفل لها البقاء على قيد الحياة، خنجراً في خاصرة العالم العربي ينزف جرحه باستمرار، ولئن شعرت بعض الدول بخطأ إيجاد إسرائيل، وحتمية إنهاء وجودها في المنطقة عاجلاً أم آجلاً، فإن الولايات المتحدة، والغرب عموماً، ومن ضمنه روسيا، يجدون لهم مصلحة في استمرار وجود هذا الكيان الهجين ـ حتى الآن ـ في وسط البلاد العربية، حاجزاً بين آسيا ذات الأغلبية العربية المسلمة وإفريقيا العربية المسلمة في غالبية سكانهما.

الوضع العام قبل الحرب

وضع العدو: كان على رأس الجيش الإسرائيلي عدد من الجنرالات، منهم: رابين، ووايزمن، ودايان وغيرهم، ومعظمهم خاضوا مع الحلفاء ضمن الفيلق اليهودي الحربَ العالمية الثانية، واكتسبوا خبرة قتالية ممتازة، أضف إلى ذلك أنهم يؤمنون أن فلسطين أرضهم الموعودة، ويعتقدون أن قرار تقسيم فلسطين لم ينصفهم، وأن بن غوريون رضي بالتقسيم لأن الظروف لم تكن ملائمة للحصول على أكثر من ذلك، وهم يرون أن الفرصة سانحة، وإن لم يستغلُّوها فقد لا تتكرر.

وعلى الرغم من أن عدد سكان إسرائيل اليهود عشية حرب ١٩٦٧م لم يكن يتجاوز مليونين ونصف، فقد كان لديهم جيش مدرَّب تحت السلاح يقدَّر بمئة ألف عسكري، ويستطيعون استدعاء الاحتياط، فيصل عدد جيشهم إلى ربع مليون مقاتل.

ولديهم سلاح طيران متفوق، معظم طائراته ميراج فرنسية كانت عشيَّة الحرب من أفضل الطائرات المقاتلة.

وقد ضغط الجيش على السياسيين حتى شكَّل أشكول وزارة وحدة وطنية وسلَّم وزارة الدفاع إلى أحد أهمِّ ضباط الجيش الإسرائيلي: موشي ديان. وبذلك استكمل العدو استعداداته العسكرية ووحدته الوطنية.

وكانت إسرائيل توهم العالم بأنها ستضرب دمشق وتزيل النظام، بينما كان

حلمها احتلال الضفة الغربية، وضرب مصر[1].

وضع العرب: كانت مصر أهم دولة من دول الطوق المحيط بإسرائيل، وعلى رأسها الزعيم العربي جمال عبد الناصر، الذي أمضى عمره وهمُّه الأول والأخير أن يكون زعيم العالم العربي الوحيد من دون منازع، وكان على رأس جيشه صاغ (رائد) لا خبرة قتالية له، مع أنه حمل رتبة مشير بإرادة عبد الناصر، وليس بخبرته العسكرية، وكان يدير الجيش كرئيس عشيرة تماماً، وضُبِطَ حشيش في مكتبه في سورية يوم الانقلاب الذي أدى إلى الانفصال بين مصر وسورية سنة ١٩٦١م، وعلى من يريد التعرف على شخصيته وطريقة قيادته الرجوع إلى مؤلفات أحد أعمدة عهد عبد الناصر ومستشاره السياسي: محمد حسنين هيكل، التي تحدث فيها عن الحرب.

ونتيجة لحكم عبد الناصر الديكتاتوري فقد تعرَّض لعدد من محاولات الانقلاب، جعلت الجيش المصري فارغاً من الكفاءات القتالية، هذا بالإضافة إلى وجود ثلث ذلك الجيش في اليمن. وعلى المستوى الشعبي المدني فقد سادت لا مبالاة شعبية بما يحدث بين مصر والعدو الإسرائيلي لأسباب لا تخفى على القارئ الفطن.

كذلك فقد كان عبد الناصر يقسم العالم العربي إلى رجعيين وتقدميين، وكانت علاقته مع الرجعيين سيئة جدّاً، ولا يتورع عن شتمهم بكلمات بذيئة وفاحشة، مثل حسين الجحش، وحسين بن زين، ولكن علاقته مع التقدميين كانت أسوأ، وبخاصة مع السوريين الذين كانوا يريدون الإيقاع به، وفي الواقع استطاعوا استدراجه لتمسُّكه بالزعامة، ويكره أن يقال عنه إنه تخاذل ولم يواجه إسرائيل.

وحتى كتابة هذه الأسطر لم أعرف سبب دخول الاتحاد السوفياتي على خطِّ الاستدراج ونقله معلومات إلى سورية وإلى عبد الناصر، تفيد بأن إسرائيل حشدت ما بين أحد عشر وأربعة عشر لواء على حدود سورية بقصد احتلال

---

(١) انظر: كتاب سعد جمعة رئيس وزراء الأردن سنة ١٩٦٧م «المؤامرة ومعركة المصير»، دار الكاتب العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٨م.

دمشق وإسقاط النظام القائم فيها، سوى عدائها للإسلام ورغبتها في تسويق أسلحتها التي لم تصمد أمام السلاح الغربي.

أما سورية فقد كان يحكمها جماعة صلاح جديد الذين تحدَّثنا عنهم، والذين امتازوا بجهل سياسي منقطع النظير، فقد حدَّثني صديق نقلاً عن أحد أفراد الوفد الذين قابلوا ديغول قبل الحرب، أن أحدهم كان يريد أن يدخل على ديغول بلباس شبابي (قميص وبنطال)، ولمّا أُفهم بأنه لا بد من مواجة الرئيس بلباس رسمي أذعن على مضض، ولما حاول ديغول إفهام الوفد أن الجيش السوري ليس مؤهلاً لدخول الحرب مع إسرائيل، وقال لأعضاء الوفد: إن فرنسا جهزت إسرائيل بطائرات ميراج، وطائرة الميغ ١٧ التي عندكم لا تستطيع مواجهة الميراج... وبما أنه يعرف أسلحة إسرائيل ويعرف تفوُّق جيشها، كما يعرف وضع الجيش السوري يومها، فقد نصحهم بعدم التورُّط في الحرب، فأجابه أحدهم: بأنهم سيهزمون إسرائيل، ولمّا سأله: كيف؟ أجابه: بالجيش العقائدي. فأنهى ديغول الاجتماع. ومع ذلك حذَّر إسرائيل من ضرب لبنان أو احتلال دمشق.

وكان ضباط الجيش السوري مجموعة من أساتذة المدارس، لا خبرة عسكرية لديهم، بعدما سرَّح البعث خيرة ضبّاط الجيش كلِّهم، مرَّة باسم الانفصاليين، وأخرى بتهمة الناصرية أو الحريرية (نسبةً إلى زياد الحريري)، والأخيرين لأنهم دروز متآمرون يريدون أن يستولوا على الحكم (!).

ورئيس أركان الجيش أحمد سويداني ضابط بثقافة نقيب عسكريّاً، مُنح رتبة لواء. وقائد الجبهة أحمد المير، لا يصلح لأن يكون رقيباً في الجيش، وأثبت ذلك في طريقة قيادته المعركة، وهربه من الجبهة ـ كما أُشيع ـ على حمار، ما أنهى دوره العسكري.

وكانت سورية في عداء مع جميع الدول العربية والأجنبية، وحتى الاتحاد السوفياتي لم يكن يثق بتلك القيادة لموقفها المتأرجح من الحزب الشيوعي، ولأن اشتراكيتها ليست أمميَّة بل قوميَّة، وكلا القوميَّة والأمميَّة متناقضان.

وكما أن عبد الناصر كان لا يثق بالسوريين، فهم كذلك لم يكونوا يثقون به، وكل منهما يتمنى زوال الآخر لما بينهما من تاريخ مؤلم للطرفين.

وأما الأردن فقد كان ملكه حسين بن طلال، حفيد الملك عبد الله ابن الشريف حسين، الذي تعاون مع الإنكليز والحلفاء ضد السلطنة العثمانية، وخانوه كعادتهم في التعامل مع العرب، فقد كان أكثر القادة العرب معرفةً بنوايا إسرائيل وقوَّتها، وبألاعيب الدول الكبرى ومقدرتها، ولذلك كان كثير الحذر، وبخاصة أن نصف مملكته (الضفة الغربية) في فلسطين، وأظنه كان يعرف نتيجة المعركة سلفاً، ولكنه قام بتقدير الموقف، فوجد نفسه بين أمرين أحلاهما مُرٌّ. فإن لم يدخل الحرب ثار شعبه ضده وفقد ملكه، وبخاصة أن عبد الناصر رعى عدة محاولات انقلاب عليه، ولكان اعتبره العرب خائناً، وألبسوه ثوب الهزيمة. وإن لحق بالركب، ودخل الحرب، فقَدَ نصف ملكه. فاختار أهون الشرَّين. وربما كان يأمل بأن إسرائيل ستكون عاقلة وتتراجع عن الحرب، عندما ترى وحدة الصَّفِّ العربي[1].

والدولة التي كان يمكن أن تساند الأردن وسورية في قتالهما، وهي العراق، لم تكن مؤهَّلة لأن تشارك في الحرب، فقد كان الوضع في زمن عبد الرحمٰن عارف مهلهلاً، كما كان البعثيون والحركات المتتالية من يوم الإطاحة بالملكية قد فرَّغوا الجيش من كفاءاته القتالية وضباطه، كما كان العراق خارجاً من محاولة انقلاب ناصرية... وكل ذلك جعله متردداً، يساعد بالكلام لا بالأفعال، وحرَّك بعض قواته باتجاه إسرائيل لكي لا يوصف بالعمالة أو بالتخاذل.

وأما الدول العربية الأخرى فقد كانت إما منشغلة بكشف مؤامرات البعث وعبد الناصر، أو لا حول لها ولا قوَّة.

وعلى الرغم من الصورة القاتمة والوضع البائس للقوات العربية، فقد بقي حكام سورية على عنجهيتهم ومشاكستهم، مع أنهم دخلوا عدَّة معارك جوية مع العدو فقدوا خلالها عدداً كبيراً من طائراتهم في نيسان ١٩٦٧م، كما خسروا في المناوشات الحدودية.

فنور الدين الأتاسي رئيس الدولة لا يكتفي بتحدّي إسرائيل؛ بل يتجاوزها

---

(١) ديب، كمال، م. س، ص٣٠٢.

إلى الولايات المتحدة، فيقول في نيسان ١٩٦٧م: «سنجعل من الأسطول السادس طعاماً للسمك»[١]، وطلاس سيرمي اليهود في البحر، ويؤكد في حمص في أول حزيران سنة ١٩٦٧م: «إن الفرصة مناسبة لتحدي إسرائيل لأنها غير مستعدة للقتال»[٢].

وسمعنا كلاماً كثيراً في الإذاعات والتلفزيونات، ولا يستطيع الواحد منّا تقدير أسباب ذلك الكلام الذي لا يصدر عن عقلاء، وما إذا كان قائلوه يدركون ما يقولون، أم أنهم لا يقصدون إلا دغدغة عواطف الجماهير.

ولم يقصِّر عبد الناصر وصناجته في صوت العرب، صاحب الصوت الجهوري «أحمد سعيد»، في المزايدة على البعث، مع أن هيكل يذكر في كتابه «الانفجار ١٩٦٧» أموراً أخرى مناقضة لما يفعل، منها: أن عبد الناصر سمع من خروشوف عند زيارته مصر قبل ذلك بأكثر من سنة استحالة الحرب العالمية الآن؛ لأن «ضحايا هذا اليوم الواحد الوحيد سوف يصل عددهم إلى ما لا يقلُّ عن مئتي مليون ميِّت، أو حيٍّ ينتظر الموت، في ظرف ساعات أو دقائق»[٣].

وهذا ما جعل عبد الناصر يقول لهيكل بعد سفر خروشوف: «المواجهة التي بيننا وبين إسرائيل، هذه لا حلَّ لها في حياتنا ولا في حياة أبنائنا. المهم أن نقوّي أنفسنا لكي نستطيع دائماً الدفاع عن حدودنا على الأقل...

تحرير فلسطين حلم بعيد، ولكننا على المدى القريب مسؤولون عن التزام الحرص والحذر وتجنُّب المغامرات غير المحسوبة»[٤].

ويقول هيكل عن عبد الناصر:

«وبخلفيته العسكرية فقد كان يدرك أن الخطوط الطويلة دائماً مكشوفة ومعرَّضة، ولم يكن سعيداً وهو يرى الجيش المصري يقاتل في اليمن في ظروف معقدة، وضدَّ جيش من المرتزقة الأجانب، ولا كان سعيداً وهو يرى نفسه محشوراً وسط المؤامرات الدولية في الكونغو، ولا كان سعيداً وهو يرى

---

(١) ديب، كمال، م. س، ص٢٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٤.
(٣) هيكل، الانفجار ١٩٦٧، م. س، ص٦٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

طموحاته للأمة العربية مرهونة بجنازير الدبابات وهي تشارك في انقلابات وانقلابات مضادة في مواقع متعددة من العالم العربي، ولا كان سعيداً بحالة العلاقات بينه وبين القوَّتين الأعظم، ولا كان سعيداً بما يجري في دول الجوار العربي وفي مقدمتها إيران وتركيا، وأهم من ذلك كله لم يكن سعيداً بما يلحظه من توجهات السياسة الإسرائيلية وهي متربصة به عند أول منحنى من الطريق»[1].

ولا نريد مناقشة ما شأنه في الكونغو، ولا أنه هو جاء على جنازير الدبابات، ولا طريقة حكمه، بل نأخذ كلام هيكل على أنه صحيح، ونظن أن عبد الناصر كان يدرك فعلاً المخاطر التي أشار إليها هيكل بحكم تمرُّسه بالسلطة، واطِّلاعه الواسع، ومخابراته القوية، وصِلاته الدولية. ولكن إصراره على زعامة العرب غطَّى على بصيرته.

أو أنه كان يظن أن القضية لا تخرج عن نطاق الدعاية والإعلام، فجعل دباباته تجتاز شوارع مدينة القاهرة، وكأنها في عرض عسكري، وهي متجهة إلى مدن القناة، لا في حرب.

مواقف الدول الكبرى

كانت الدول الكبرى تعلم عن طريق مخابراتها وديبلوماسييها حقيقة القوى المختلفة في المنطقة، وإمكانات كل دولة. وتتوقع انتصار إسرائيل في حال وقوع حرب بينها وبين العرب.

والدول الكبرى التي لها مصالح في المنطقة، وتتدخل في شؤونها سرّاً وعلناً، هي الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، وبريطانيا، وفرنسا. وهي دول دائمة العضوية في الأمم المتحدة، ولمواقفها أهمية كبرى، إذ تملك حقَّ الاعتراض (الفيتو) على أي قرار يصدر عن مجلس الأمن، ولذلك حاولت إسرائيل التي وجدت الفرصة سانحة لها أن تكسب تأييد هذه الدول، باستثناء الاتحاد السوفياتي التي تعرف وقوفه إلى جانب العرب من دون تدخُّل فِعلي لصالحهم. فأرسلت وزير خارجيتها، أبا إيبان يومها، لحشد تأييد الدول

(١) هيكل، الانفجار ١٩٦٧، م. س، ص٦٢.

الغربية، مستغلّاً ما يقوم به عبد الناصر، متظاهراً بالخوف يعمُّ إسرائيل، ومبدياً كيانها مهدداً. وهو وحكومته في واقع الحال كانوا ينتظرون تلك اللحظة لكسر شوكة العرب.

فقد أزاح عبد الناصر سورية من الواجهة، وتولى دقَّ طبول الحرب، فطلب من أمين عام الأمم المتحدة سحب قواتها من سيناء، وأغلق خليج العقبة في وجه المراكب الإسرائيلية القادمة إلى ميناء إيلات، وحرَّك بعض القوات في شوارع القاهرة متجهة إلى الجبهة، وكأن الحرب عراضة أو استعراض... واتصل سرّاً بالولايات المتحدة عارضاً أن تحمل السفن الإسرائيلية غير علَمها عند دخول خليج العقبة، ويسمح لها بالمرور. فالمهم عنده هو إقناع العالم العربي بتحقيق الانتصار وفرض الإرادة ظاهريّاً على العدو.

ولم يكن ذلك لينطلي على إسرائيل أو الولايات المتحدة[١]، «وكانت قيادة الجيش الإسرائيلي العليا مقتنعة: أن أكبر خطر يهددها هو مصر، وأن المعارك ستدور في جنوب إسرائيل وفي شبه جزيرة سيناء بالذات»[٢] وليس على الجبهة الشمالية.

وقد دعمت الولايات المتحدة إسرائيل في عدوانها سياسيّاً وعسكريّاً، وكثَّفت إرسال شحنات الأسلحة إليها، وأفهم رئيسها، ليندن جونسون، بوساطة رئيس الموساد الإسرائيلي «مئير عاميت» الذي زار واشنطن في ٣٠ أيار ١٩٦٧م والتقى مدير السي آي إي «ريتشارد هلم» أن: «لا أحد في أمريكا سيعترض إذا خاضت إسرائيل الحرب وربحتها»[٣].

وساعد إسرائيل أيضاً بالإيحاء إلى عبد الناصر بأنه يمكن حلُّ الموضوع سياسيّاً، فقرَّر عبد الناصر إرسال زكريا محيي الدين إلى واشنطن.

---

(١) لقد كانت تصرفات عبد الناصر مفضوحة، فقد قال «آرثر غولدبرغ» المندوب الدائم للولايات المتحدة في مجلس الأمن للجنرال «مائير آميت» مبعوث إسرائيل إلى الولايات المتحدة قبيل الحرب: «إن ناصر يريد تحقيق انتصار بغير حرب، وهذه سياسته الواضحة من جميع تصرفاته، ولا يحق لنا ولا لكم أن نسمح له بذلك» [هيكل ص٦٤٥].

(٢) تشرشل، رودولف ونستون، حرب الأيام الستة، ترجمة محمد حسين الراوي، بدون اسم ناشر وبيانات النشر.

(٣) ديب، كمال، م. س، ص٣٠١.

ولم تهتم إسرائيل لرأي ديغول (فرنسا) الذي حذَّرها من إعلان الحرب، وهددها بفقدان صداقة فرنسا في حال بدأت بالعدوان.

وكذلك لم تهتم بتحذير الاتحاد السوفياتي الذي حذَّر قادتُه مصرَ أيضاً، وأصرَّ عليها ألا تبدأ بالحرب، وتابع ذلك السفير السوفياتي مع عبد الناصر بإلحاح. وقد كسبت إسرائيل تأييد بريطانيا أيضاً بالإضافة إلى تأييد الولايات المتحدة، اللتين قدَّمتا معونات عسكرية وفنّيَّة في تعطيل رادارات مصر واتصالاتها.

المفاجأة بالعدوان

من عادتي أن أضع «راديو الترانزستور» على الوسادة بجانب رأسي، ولما اشتكت زوجي صوته أصبحت أضع السماعة في أُذنيَّ، وأنام على الأخبار كما أصحو عليها. وهكذا استيقظت صباح الإثنين في ٥ حزيران ١٩٦٧م على أنباء بدء الهجوم الإسرائيلي بغارات مكثفة على المطارات المصرية. فارتديت ملابسي وجلست أنتظر شريكي بهاء الذي كانت سيارتنا المشتركة معه ليلتها، وما هي إلا دقائق حتى كان أسفل البناية، فأسرعت إليه واتجهنا نحو وسط المدينة.

وبدأ الحديث قائلاً: بدأت الحرب، وأبو صياح (يقصد العقيد الطيار هيثم المهايني الذي كان يسكن معه في البناية ذاتها) غادر إلى دمشق فور سماع خبر بدء الحرب، والمفروض أن نذهب نحن أيضاً. فأجبته: طبعاً؛ ولكن الآن تقطع الطرق، ومن الأفضل أن نتصل بالقيادة للاتفاق معها، وفي هذه الأثناء أتصل بزوجي وأُعلمها بسفري. فاحتدَّ وقال: أنت دائماً هكذا.. كل شيء عندك يحتاج إلى دراسة وتمحيص، ما بدها الآن برادة دم... وهذه الصفة الظالمة التي يتهمني بها بعض الزملاء، وكم كنت أتمنى لو كانت طبيعة بي وليست مكتسبة... فقلت له: أنت أعزب ولا مسؤولية عائلية عليك...، وقبل أن أكمل قال: سأنزل هنا. وكنا قد وصلنا إلى رياض الصلح حيث تنطلق السيارات إلى دمشق، وقال: أنا سأغادر إلى دمشق وأنت اعمل ما تراه مناسباً.

أخذت السيارة منه واتجهت إلى مكتبنا في منطقة الصيفي، وما هي إلا دقائق حتى جاء غاضباً، وقال: كما قلت، لقد أغلقوا الطرقات، ولم أجد سيارة تُقلُّني إلى سورية، فقلت له: لا بأس، سنتدبر الموضوع... ووضعت زوجي هاتفيّاً في صورة ما يجري وأنني قد أغادر إلى سورية.

وفي هذه الأثناء بدأ زملاؤنا الضباط المتقاعدون الهاربون يصلون إلى

المكتب، وبينهم عبد الكريم النحلاوي، وعبد الرحمٰن السعدي... وكل واحد منّا يتحرَّق شوقاً للالتحاق بالجيش، والمشاركة في القتال ولو تحت راية القيادة التي سرَّحتنا وسجنتنا وشرَّدتنا، فقد وضعنا ساعتها حنقنا جانباً، وكان كل همِّنا الوصول إلى سورية... وبدأ كل واحد منا يعطي رأيه في ما يجب علينا فعله.

وقد كان رأيي أنَّ تسرُّبنا إلى سورية من دون موافقة القيادة المسبقة قد يسيء فهمه زملاؤنا الذين استولوا على الحكم في غفلة من الزمن، وسيظنّون أننا جئنا للانقلاب عليهم، وبخاصة أن عهدنا بالجيش ليس ببعيد، ونحن نعلم حقدهم وتمسُّكهم بالسلطة... وأيَّد الفكرة عبد الكريم النحلاوي، واقترح أن أقوم بالاتصال بالقيادة السورية هاتفيّاً.

وقبل الاتصال بالأركان العامة في دمشق اتصلت بقيادة موقع بيروت العسكرية، وأعلمتهم بأننا مجموعة من الضباط السوريين المتقاعدين نرغب بالالتحاق بالجيش السوري، وبما أن الطرق مقطوعة نطلب منهم تأمين نقلنا إلى سورية، فكان الجواب أن الجيش اللبناني على استعداد لإيصالنا إلى الحدود السورية فحسب، وعلينا تأمين تنقُّلنا في سورية.

لا حاجة لنا

فاتصلت بعدها بالأركان العامة السورية، فكان جواب عامل السنترال أنه لا يوجد في القيادة إلا ضابط مناوب، فتحدثت إليه وعرضتُ الوضع عليه، فطلب الأسماء، فأمليتها عليه، وبعدما سجَّل الأسماء ورقم الهاتف قال: سأعرضها على القيادة وأجيبك، وحاول من طرفك الاتصال بعد ساعة.

ولـمّا لـم يتصل، اتصلت به بعد أكثر من ساعة، فقال: إن الوضع العسكري للجيش السوري جيد جدّاً بحسب ما أبلغته القيادة، وعند الحاجة إلينا سيتصلون بنا هاتفيّاً ويؤمِّنون التحاقنا بالقطعات.

فسُرِرْنا بالأخبار التي نقلها إلينا، ومكثنا نتابع ما تبثُّه الإذاعتان السورية والمصرية من أخبار مفرحة، ثبت كذبها واختلاقها لاحقاً.

وكان صوت أحمد سعيد يهدر من إذاعة صوت العرب في القاهرة أقوى من هدير الدبابات والطائرات، ويعلن عن تحركات القوات العربية بهدف رفع

المعنويات، غير مبالٍ باطلاع العدو على ما يعلنه، وكانت نتيجة المعارك الكارثة التي سأتحدث عنها.

وقبل متابعة سياق الأحداث، أشير إلى أن الضباط الذين أعطيتُ القيادة السورية أسماءهم أحيلوا إلى محكمة أمن الدولة على أنهم من التنظيم العسكري للجبهة الوطنية الدستورية، التي وجهت إليها تهمة التآمر ضد نظام الحكم، وأنها أحد أسباب الهزيمة بسبب انشغال السلطة بمتابعة نشاطها هي والمتآمرين الآخرين، عن التحضير للمعركة ضد العدو (!).

وورد اسم النحلاوي بين ضباط الجبهة، ولمّا تبيَّن للمحكمة أنه لا علاقة له بها، فصلت قضيته عن قضيتها ولم تحاكمه.

وبعد أيام بلغني من زوجة هيثم المهايني أنه فور وصوله إلى دمشق اتصل بالقيادة عن طريق صديق عارضاً خدماته، فأرسل إليه عبد الكريم الجندي، رئيس الأمن القومي، سرّاً، أن اختبئ وغادر سورية قبل أن تُعتقل، وبالفعل أخذ بنصيحة الرجل وعاد إلى لبنان غضبان أسِفاً. وكانت نصيحة الجندي بسبب يساريته المفرطة، والإشاعة عن المهايني أنه يساري، أو في لحظة صحوة ضمير عند الجندي متقلب الأطوار.

وبالعودة إلى سير الأحداث، فقد بدأت إسرائيل عدوانها في الصباح الباكر على ما أذكر من يوم الإثنين ٥ حزيران ١٩٦٧م، وخلال ساعات تمكنت من تدمير معظم الطائرات المصرية[١] والأردنية والسورية على الأرض، كما قصفت محطات الرادار والمطارات وأجهزة الدفاع الجوي، فأصبحت سيدة الجوِّ، تعربِدُ في سماء المعارك كما تشاء.

---

(١) من المهازل ما ذكره الفريق محمد فوزي، قال: «أما عن القوات الجوية، فقد أقامت الشؤون العامة للقوات الجويَّة، حفلاً ترفيهيّاً للقوات الجويَّة والدفاع الجوي المتمركزة في منطقة أنشاص، وكانت التعليمات لإقامة هذا الحفل قاصرة على الشاي والموسيقى، ولكن أموراً أخرى خافية حوَّلت هذا الحفل البريء إلى حفل ساهر امتد إلى ساعة متأخرة من الليل» [مذكرات الفريق محمد فوزي، م. س، ص١٣٠].
ولم يبيِّن فوزي الأمور الأخرى الخفية، وربما كانت عملاء للعدو تعمَّدوا ذلك؛ لأن التوقعات التي أبلغها عبد الناصر إلى قادته أن العدوان متوقع يوم ٦/٥، والحفلة كانت مساء ٦/٤.

فذُعرَت القيادة المصرية، وأصدرت أوامرها إلى القوات المصرية بالانسحاب إلى الضفة الغربية. ولا ريب أن إسرائيل علمت بالأمر فاندفعت بقواتها على محاور سيناء، وبرَّر عبد الناصر المفاجأة الإسرائيلية بمقولة: «انتظرناهم في الشرق فجاؤوا من الغرب» فذهبت مثلاً، وهو كان يقصد أن الطائرات الإسرائيلية لم تأتِ من الشرق مباشرة باتجاه مصر، بل طارت على علوٍّ منخفض حتى لا تكشفها الرادارات فوق البحر، وجاءت باتجاه مصر من ناحية الغرب.

وكانت القوات السورية أكثر ذهولاً، وأخذت قواتها وضع الترقب، بينما كانت البيانات العسكرية تدعي إسقاط الطائرات الإسرائيلية بالجملة، حتى تجاوز عدد الطائرات الإسرائيلية المسقطة لمن كان يعدُّها عدد طائرات إسرائيل.

هذا باختصار ما حصل، وقد وصف هيكل ذلك فقال: «كانت هذه المدة القصيرة ـ ثلاث ساعات ونصف ـ هي لحظة الزمن التي استغرقتها الضربة الجوية الإسرائيلية، والتي جاءت ضربة قاضية. ففي الساعة الثامنة بالضبط من صباح ٥ يونيو قامت موجة أولى من الطائرات الإسرائيلية عددها ١٧٤ طائرة بمجموعة من الغارات المتزامنة على كل قواعد العمق المصري في وادي النيل، ابتداءً من قاعدة «أبو صوير» على الضفة الغربية لقناة السويس، وحتى مطار الأقصر، في جنوب الوادي، ثم لحقَتْها موجة ثانية من ١٦١ طائرة ركَّزت بالدرجة الأولى على المطارات المتقدمة في سيناء. ثم جاءت موجة ثالثة من ١٥٧ طائرة تكتسح ما بقي من حطام على المطارات والقواعد المصرية»[١].

وسواء أكان ما ذكره هيكل دقيقاً أم غير دقيق، فالنتائج تدل على تدمير معظم السلاح الجويّ والدفاع الجويّ في ساعات، ودلَّ ما حصل بعد ذلك على أن المعركة انتهت قبل ظهر اليوم الأول من العدوان في ٥ حزيران. وما حصل بعد ذلك يمكننا أن نسميه «استثمار النصر».

فعلى الجبهة المصرية[٢]، وقبل مضي أربع وعشرين ساعة على بدء

---

(١) هيكل، الانفجار ١٩٦٧، م. س، ص٧١٠ ـ ٧١١.

(٢) يمكن للراغب في الاطلاع على سير الأحداث في الجبهة المصرية العودة إلى مذكرات عبد اللطيف البغدادي، نشر المكتب المصري الحديث، ج٢، ص٢٥٥ وما بعدها، فهو =

العدوان، أصدر المشير أوامره فجر ٦/٦ بانسحاب القوات المصرية، من دون خطة انسحاب، وفق ما هو معروف في مبادئ الحرب. ولا ريب أن الرجل كان مرهقاً ومتعباً...، فقد ذكرت معلومات متواترة أنه كان عائداً بطائرته من إحدى القواعد العسكرية عند بدء العدوان، وبقي مدة في الجوِّ لا تستطيع طائرته الهبوط.

كما أنه كان في تلك الليلة أعدَّ حفلة ترفيهية لضباط الطيران، فطال بهم السمر والسهر، ليُفاجؤوا في الصباح بالعدوان.

ولمّا علمت القيادة الإسرائيلية بأوامر الانسحاب اندفعت بقواتها البريَّة على محاور سيناء، في حين كانت طائرات الهيلوكوبتر تطالب بمكبرات الصوت الجنود الهائمين على وجوههم في الصحراء بإلقاء أسلحتهم والنجاة بأرواحهم، فلم تكن لديها الإمكانات ولا الوقت لأسرهم، فاكتفت بأسر الضباط وتركت الجنود.

وعلى الجبهة الأردنية تقدَّمت القوات الإسرائيلية باتجاه القدس وجنين، فأبادت كتيبة المدرعات المدافعة عن المدينة، وخاضت معارك شوارع ضارية، أبدت فيها القوات الأردنية مقاومة باسلة، ولكنها لم تستطع الصمود طويلاً، ثم تابعت تقدُّمها لاحتلال الضفة الغربية متذرِّعة بذرائع شتى.

إذ صدر عن مجلس الأمن قرار بوقف إطلاق النار في ٦/٦/١٩٦٧م وقَبِلَه الأردن فوراً، بينما تأخرت مصر قليلاً، فلم تُعِر إسرائيل بالاً لقبول الأردن، بحجة أنه شريك مصر التي لم يصدر عنها موقف، ومع أن مصر لم تتأخر كثيراً بموافقتها على القرار، فقد تابعت إسرائيل عملياتها غير مكترثة بالعالم كله.

ومن غرائب الأمور، أن سورية التي كانت هي سبب الحرب، لم تتحرك قواتها طيلة يوم ٥ حزيران... وفي يوم الثلاثاء ٦ حزيران بدأت بقصف المستعمرات الإسرائيلية المواجهة للجبهة السورية بالمدفعية وبكافة العيارات. واستمر القصف مدة ثلاثة أيام، والقوات الإسرائيلية منشغلة بالجبهتين المصرية والأردنية. كما قامت القوات السورية بعدَّة هجمات على الأراضي المحتلة لم تحقق أهدافها، لأنها لم تكن جدّيَّة، ولم تحشد لها القوات الملائمة.

= يصف مشاهداته في مركز القيادة بحضور المشير، وأحياناً عبد الناصر.

ولما أكملت القوات الإسرائيلية مهمّاتها على الجبهتين المصرية والأردنية ووصلت إلى الحدود التي كانت قد رسمتها وحدَّدتها مسبقاً؛ تفرَّغت للجبهة السورية، فبدأت هجومها البريّ فجر الجمعة ٦/٩ على الجبهة السورية ممهدة بقصف جوي عنيف.

مفاجأة في الجبهة السورية

وعلى الجبهة السورية، وكما حققت إسرائيل مفاجأة في هجومها على مصر، فقد حققت مفاجأة في هجومها على سورية، فالجبهة السورية كانت مقسَّمة إلى ثلاثة قطاعات: شمالي، وأوسط، وجنوبي. وكان القطاع الشمالي محصَّناً طبيعيّاً لكثرة الصخور والعوائق الطبيعية فيه بالإضافة إلى العوائق والألغام العسكرية. وكذلك فقد كان القطاع الجنوبي مرتفعاً عن الأراضي المحتلة بشكل عمودي، ما يجعل تسلُّقه شديد الصعوبة، وبخاصة إن فُجِّرت طُرقه الملغَّمة، فيصبح التقدم منه مستحيلاً.

بينما كان القطاع الأوسط أسهلها تقدُّماً للعدو، ولذلك كانت القيادة السورية تتوقع الهجوم من ذلك القطاع، فاهتمَّت بتحصينه على مدى سنوات بشكل كبير.

ولا ريب أن العدو كان يدرك ذلك، فشاغل القوات السورية في القطاعين الأوسط والجنوبي، ليصرف نظر القوات السورية عن القطاع الشمالي الذي اختاره محوراً رئيساً لهجومه. وفي الوقت الذي كان طيرانه يغطي سماء المعركة، ويُلهب أرضها بحمم قنابله وصواريخه، كانت قواته الهندسية تشقُّ طُرقاً لدباباته وقوّاته المحمولة للتقدم في القطاع الشمالي، ومع ذلك استطاع مدفع مضاد للدبابات أن يقضي على كتيبة الدبابات المتقدمة فلا يبقي منها سوى ثلاث دبابات.

«وكان في برج المراقبة المشترك على الحدود السورية اللبنانية ضابط سوري، كان من المفروض أن يتصل بمقرِّ قيادة الجيش السوري على الجبهة ليُحيطها علماً بأخبار محاولة اختراق الجبهة بمساعدة البلدوزر، وتعيين زوايا تحرُّك الدبابات بواسطة المنظار المكبِّر، لتتمكن المدفعية السورية من توجيه ضربات قاتلة إليها.

ولكن سرعان ما تبيَّن أن الضابط السوري لم يكن يعرف استعمال المنظار المكبِّر ولا تعيين زوايا تحرُّك الدبابات وإبلاغها إلى سلاح المدفعية.

لقد كان الضابط السوري وطنيّاً مندفعاً، ومن أشد المتحمسين للنظام القائم. ولكنه كان معلم مدرسة، لم تمضِ عليه أكثر من ستة أشهر في الجيش، وبالتالي لم تكن لديه أية مبادهة عسكرية أو معرفة في فنون القتال»[1].

في هذا اليوم (الجمعة ٦/٩) شعرت القيادة السورية أنها في حرب، وليس في تمثيلية غوغائية، ولا في مزايدة بينها وبين عبد الناصر، فقبلت بقرار وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن برقم ٢٣٤ بتاريخ ١٩٦٧/٦/٧م، وأطلقت سراح عدد من الجناح البعثي المعارض المتمثل بالقيادة القومية، الذين اعتُقلوا بعد انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦م، ومنهم أمين الحافظ ومحمد عمران. بينما اعتقلت سليم حاطوم وجماعته الذين كانوا فارّين إلى الأردن ودخلوا سورية في ٦/٧ بذريعة المشاركة في الدفاع عن الوطن. وارتأت السلطة الحاكمة أنهم دخلوا لتنفيذ انقلاب ضدَّها.

ولا يستطيع أي مراقب إلا أن يستغرب تأخُّر سورية من ٦ إلى ٩ حزيران في قبول وقف إطلاق النار بعد أن قبلته المملكة الأردنية ومصر، وقد رأت قيادتها ما حلَّ بالجيشين المصري والأردني، وبعد أن فقدت معظم سلاحها الجوي.

البلاغ ٦٦

وعلى الرغم من قبول سورية بقرار وقف إطلاق النار، فقد تابعت إسرائيل تقدُّمها حتى أنجزت المهمة التي وضعتها نصب عينيها، وساعد في ذلك أوامر القيادة السورية يوم ٦/١٠ لجميع القوات في الجبهة بالانسحاب إلى خط الدفاع الثاني، من دون أي خطة للانسحاب كما تقضي المبادئ العسكرية، وصدور بلاغ في الساعة ٨:٤٥ من ذلك اليوم حمل الرقم ٦٦ عن وزير الدفاع، يعلن سقوط القنيطرة قبل أن تسقط بمدَّة تجاوزت ٣٦ ساعة.

---

(١) من شهادة ضابط لبناني، أوردها: خليل، مصطفى (بريز)، سقوط الجولان، م. س، ص١٠٢.

ويتضمن هذا الكتاب يوميات الحرب على الجبهة السورية ساعة فساعة، ويذكر بيانات القيادة السورية.

وقد وصف الوضع موشي دايان وزير دفاع العدو، فقال:

«وفي الواقع لم يكن أي جندي إسرائيلي قد ظهر ساعتئذ في المدينة، والقوات السورية ما كادت تسمع النبأ حتى انطلقت مدبرة، فلم ترَ حامية المدينة عندئذ أية فائدة من المقاومة. ولما وصلت قواتنا حوالي الظهر إلى القنيطرة والبطيحة ومسعدة، وهي أهدافنا الأخيرة في الجولان، وجدتها خالية. [يوميات قادة العدو ٣، موشي دايان، الفاشية، ص٣٠٤].»[١].

ونستشهد بموشي دايان لأن المدافعين عن ذلك القرار يُصرّون على أنه أذيع بعد سقوط القنيطرة لحثِّ مجلس الأمن على إصدار قرار حازم بوقف إطلاق النار، ولكي لا تتابع القوات الإسرائيلية التقدُّم نحو دمشق. ولكن الحقيقة لم تخفَ على السوريين، فالآلاف منهم رأوا بأمِّ العين ما حصل، وكيف أن القوات الإسرائيلية كانت تتقدم بحذر، وذهول من عدم مواجهتها، كما أن القوات المنسحبة تُعَدُّ بالآلاف، وهي من أبناء الشعب، فكانت تتحدث عن هرب القيادة، وترك القوات من دون أوامر أو تعليمات.

وسرت شائعات أن البلاغ ٦٦ الذي حمل توقيع وزير الدفاع إنما هو بلاغ متفق عليه لتسليم الجولان. ومنذ ذلك التاريخ تتحاشى القيادة التطرق إلى ذلك البيان، وبخاصة بعد إشاعة تقول: «وتدخَّل الأسد شخصيّاً لمعرفة مصدر التقرير وظروف أرض المعركة، وصدر بيان ثانٍ الساعة ١٠:٤٥ يصحح المعلومات وأن المدينة لم تسقط»[٢].

وللقارئ أن يتصور الفوضى التي دبَّت في صفوف العساكر والذعر الذي انتابهم، حتى إن قائد الجبهة أحمد المير لم يستعمل سيارة في هربه خوفاً من قصفها بالطيران، فهرب ماشياً ولما تعب ركب حماراً كما أُشيع.

وبعد وصول إسرائيل إلى الحدود التي كانت تحلم بها وتوقف إطلاق النار، أصبح حديث الناس في سهراتهم ولقاءاتهم توصيف ما حدث، وتداوُل روايات العسكريين والمدنيين عما شاهدوه. ولم يقتنع معظم الناس بأن

---

(١) الساطع، أكرم، تاريخ ووثائق، م. س، ص٢٢٧.

(٢) ديب، كمال، تاريخ سورية المعاصر، م. س، ص٣٠٤.

الإهمال، مثل عدم تفجير الملاغم، وعدم الخبرة، والاهتمام بحماية النظام وليس بحماية الأرض، هي سبب الهزيمة فحسب، بل رأى أكثرهم وجود خونة بين الحاكمين استطاعوا تحقيق أهداف العدو لأهداف مبيَّتة، وبخاصة أن قضية الجاسوس كوهين كانت ما زالت تُرخي بظلالها على الشعب السوري.

الحقّ على الطليان (!)

وحصلت بلبلة في صفوف الحزب الحاكم، فقد حمَّل المدنيون العسكريين أسباب الهزيمة، واتهموهم بالتخاذل وسوء إدارة المعركة، وردَّ العسكريون باتهام المدنيين بأنهم هم الذين ورَّطوا الجيش في حرب لم يستعد لها. كما حاول بعض الحزبيين تحميل وزير الدفاع حافظ الأسد مسؤولية الانسحاب من الجبهة والبيان ٦٦، ولكن نفوذه في الجيش لم يمكِّنهم من اتخاذ أي إجراء ضدَّه.

وبما أن الطرفين مسؤولان فقد طووا موضوع المحاسبة واتفقوا على إشاعة أنهم انتصروا[1] في المعركة (!)؛ لأن إسرائيل لم تستطع تحقيق هدفها من الحرب وهو إسقاط النظام الثوري الجاثم على صدور العباد في سورية، وأن الأراضي يمكن استردادها. أما خسائر الجيش السوري فبلغت ٢٥٠ قتيلاً، وقيل ١٢٨ لا غير، و٣٠٠ جريح، ومعظم سلاح الجو، والمدفعية المضادة، وزهاء خمسين دبابة، وجميع الأسلحة التي تُركت للعدو سليمة في الجولان، ما جعل بعض المواطنين يتندَّرون بمرارة فيقولون: «الاتفاق ينصُّ على تسليم الجولان مفروشاً».

وكما نشأ لدى الشعب السوري شك بوجود خيانة أدَّت إلى الكارثة، فكذلك كان الشك موجوداً لدى الحكام العرب والشعوب العربية، وقد أشار هيكل إلى ذلك بعد سنوات فقال: «إن رسالة الملك حسين إلى الرئيس جمال عبد الناصر بواسطة الفريق عبد المنعم رياض (في أول مايو ١٩٦٧م) كانت تشير إلى ضلوع عناصر في القيادة السورية مع المخطط الذي وُضع لنصب الكمين

(١) شاع بين بعض الكتّاب المراهقين يومها تعبير مضحك مُبكٍ، هو «الانتصار السلبي»؛ لأن تلك الحرب في رأيهم كشفت أطماع الكيان الصهيوني...

لمصر، ويضاف إلى هذا أن بعض عمليات التصحيح التي جرت في سورية فيما بعد أشارت بطريقة غامضة إلى ارتباطات معينة بين عناصر نافذة في السلطة وبين جهات استعمارية معروفة»[1].

ويلاحَظ من كلام هيكل اتهام واضح وصريح صيغ بلغة ديبلوماسية.

وبعد مضي ٤٨ سنة من تلك الحرب المشؤومة، عرضت قناة الجزيرة في حزيران سنة ٢٠١٥م فلماً وثائقيّاً عن سقوط الجولان، ومن جملة مَن ظهروا فيه محمد الزعبي، وزير الإعلام أثناء تلك الحرب، أكَّد فيه أن البلاغ ٦٦ الذي أصرَّ وزير الدفاع على إذاعته هو بلاغ مشبوه، وعندما أُذيع كان العدو بعيداً عن القنيطرة، وعلَّق محلِّل إسرائيلي بأن النظام السوري قرَّرَ تسليم الجولان مقابل المحافظة على النظام.

أمّا صديق رئيس الأركان أحمد سويداني، المدعو «عقاب يحيى»، فنَقَلَ عن سويداني اتِّهامه وزير الدفاع حافظ الأسد بالخيانة، وأنه كان في مركز قيادة الجبهة عند صدور البلاغ مع كبار الضبّاط، فلما سمعوا البلاغ هرب جميع الضباط وبقي سويداني وحده ساعات، ولما غادر كانت أقرب دبابة إسرائيلية تبعد أربعة كيلومترات.

ولا بد أن سويداني بغبائه، أو في إطار دفاعه عن نفسه، أخذ يثرثر بخيانة وزير الدفاع ما أدى إلى إقصائه.

وأظن أن دول الخليج التي دعمت آل الأسد زهاء نصف قرن، ولم تتحدث عن سقوط الجولان، بدأت بكشف المستور بعد أن أدركت انتهاء صلاحيتهم وقرب أفول نجمهم.

والواقع أن إسرائيل تحرص في العالم العربي على كل نظام لا شعبية له، وأنها لم تهدف من الحرب إلا الوصول إلى حدود آمنة واكتساب أراضٍ كافية لاستيعاب يهود العالم، وبنتيجة تلك الحرب: «سيطرت إسرائيل على مساحات كبيرة من الأراضي العربية المحتلة تفوق بكثير مساحتها الأصلية البالغ قدرها ٢٠٧٠٠كم٢ عشية حرب ١٩٦٧، إذ تبلغ مساحة سيناء ٦١١٩٨كم٢، ومساحة

(١) هيكل، الانفجار ١٩٦٧، م. س، ص٧٥٦.

قطاع غزة ٣٦٣كم٢، ومساحة الضفة الغربية ٦٨٧٨كم٢، ومساحة الجولان ١١٥٠كم٢، وبذلك أصبحت جملة الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل ٨٩٣٥٩كم٢. وقد أدّى ذلك إلى تحسين الوضع الجغرافي ـ الاستراتيجي لإسرائيل لدرجة كبيرة»[١].

وقبل المضي في الحديث عن كيفية معالجة ذيول حرب ٦٧ في سورية، يجدر بنا التطرق إلى حدث مهم في مصر يومها، هو استقالة الرئيس جمال عبد الناصر.

(١) طلاس، مصطفى، مرآة حياتي، م. س، ج٢، ص٨١٤. وبتصحيح الخطأ في الجمع تبلغ مساحة الأراضي المذكورة ٩٠٢٨٩كم٢. علماً بأنه يوجد خطأ أيضاً في تقدير مساحة الجولان، وربما بلغت ١٥٠٠كم٢.

استقالة عبد الناصر وانتحار المشير

كنت في مكتبي يوم ٩/ ٦/ ١٩٦٧م، وكانت المعارك على الجبهة المصرية قد أسفرت عن «أكثر من عشرة آلاف قتيل وثلاثة عشر ألف أسير»[١]، فشعر قادة الجيش المصري بمسؤوليتهم عن الهزيمة، فقدَّم المشير عبد الحكيم عامر وكبار القادة العسكريين إلى الرئيس عبد الناصر استقالاتهم، فقبلها على الفور، وبعد إعلانها، وبينما كنت أستمع وشريكي بهاء إلى إذاعة صوت العرب، فإذا بالمذيع يعلن عن توجيه الرئيس عبد الناصر رسالة إلى الشعب المصري والأمة العربية.

واستمعنا إلى كلمة عاطفية طويلة، اختصرت ما حدث على الجبهات الثلاث، وخصَّ الجيش الأردني بإشادة خاصة، والواقع أن أداءه على الرغم من خسارته كان أداءً رائعاً.

وفي نهاية كلمته أعلن استقالته وإسناد رئاسة الجمهورية إلى نائبه زكريا محيي الدين، فقال: «وأقول لكم بكل صدق، وبرغم أيَّة عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة، فإنني على استعداد لتحمُّل المسؤولية كلها، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه، لقد قررتُ أن أتنحى تماماً ونهائيّاً عن أي منصب رسمي أو دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر»[٢].

ومع أن هذه الكلمات يجب أن تكون خاتمة المقال، أكمل مهاجماً الاستعمار وأذناب الاستعمار والامبريالية... ومكرِّراً الإشادة بتحالف قوى الشعب العاملة، والقوات المسلحة، وختم: «إن هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن، إنه موقف للمُثُل العليا وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية، إن قلبي كله

(١) الحوراني، أكرم، مذكرات، م. س، ج٤ ص٣٤٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٤٤.

معكم، وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي، وليكن الله معنا جميعاً أملاً في قلوبنا وضياءً وهدىً».

وكنت أستمع لكلمته وقلبي يتفطَّر ألماً وحزناً، فأنا فرد من الأمة العربية التي تأخذها العواطف وتأسرها الكلمات. فقد كانت كلمته مؤثرة جدّاً، وكانت بليغة، على عكس خطبه المعتادة، فانتابني شعور غريب هو مزيج من التعاطف والحزن والاتهام بالتقصير. وبينما أنا ساهم أفكر في مأساتنا رنَّ جرس الهاتف، وكان المتحدث المحامي زهير الشلق، وبدأ حديثه بالتهكم على نهاية عبد الناصر، فأجبته: إن هذا ليس وقت الشماتة، وأنهيت المخابرة، ثم اقترحت على شريكي بهاء أن نغلق المكتب ونذهب إلى بيوتنا، فقد ضاق صدري، ولم يعد بإمكاني البقاء هنا.

وما كدنا نسير بسيارتنا مئات الأمتار حتى وجدنا أنفسنا ضمن تظاهرة حاشدة تصرخ بجنون: ناصر ناصر، وكالعادة في هكذا تظاهرات تُفْلِت الغوغاء، فكادوا يكسِّرون السيارة ونحن بداخلها لأننا لا نضع على مقدمتها ومؤخرتها صورة عبد الناصر، فطلبنا منهم صورة لأننا لم نعثر على صورة، فهدؤوا لعدم وجود صورة معهم يقدموها إلينا، فكتبوا على زجاج السيارة ناصر، وتركونا نتابع سيرنا.

ولم يكن الشعب في مصر أقل هياجاً، فعاد عبد الناصر عن استقالته في اليوم التالي.

وأراد المشير العودة عن استقالته أيضاً، فلم يوافق عبد الناصر، وأدَّى الصراع على السلطة إلى مقتل المشير أو انتحاره.

وقصة وفاة عبد الحكيم عامر تشبه الروايات البوليسية، وليس هنا مجال التوسع فيها، إلا من باب إحاطة القارئ بكيفية إدارة أكبر دولة عربية في تلك الأيام.

فبوفاة المشير انتهت أقوى علاقة سياسية بين شخصين ساند أحدهما الآخر إلى أقصى الحدود الممكنة. فقد كان عبد الناصر وعبد الحكيم توأمين لا يستطيع أحد فصلهما، ولكن السلطة والتسلط عند بعض بني البشر تجعل الوالد يتخلَّص من ابنه، والابن من أبيه، والأخ من أخيه.

فما أذيع رسميّاً يوم السبت في ٩/١٦ هو أن المشير انتحر، والمتفق عليه أن سبب الوفاة هو تناوله سمّاً قاتلاً. وأنصار عبد الناصر يؤكدون أنه كان يحتفظ بذلك السم وانتحر به. بينما تؤكد معلومات مختلفة المصادر، منها زوجه الثانية «برلنتي عبد الحميد» في أحاديثها، وفي كتابها «الطريق إلى قدري» أن الطبيب الذي كتب تقرير الوفاة أكَّد لها أنه لم ينتحر بل نحروه، وأن المشير ذكر لها بعد الحرب خوفه من الاغتيال.

وللقارئ أن يقدِّر ما حصل من وصف أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو، عبد اللطيف البغدادي، صديق الطرفين، قال: «واتصل بي كمال الدين حسين من بنها وسألني عن الحادث، وأنه لم يعلم به إلا من صحف اليوم. بكينا. وحضر من بنها إلى منزلي وتبادلنا الرأي في القيام بواجب التعزية لأسرة المرحوم عبد الحكيم. ولما سألنا عمّا إذا كان هناك مأتم في بلدته حيث تم دفنه، علمنا أنه لم يكن هناك معزّون، واضطرت أسرته إلى العودة إلى منزله بالجيزة. ولما ذهبنا إليهم في المساء للقيام بواجب العزاء لم نجد غير أفراد الأسرة، أي الزوجة والأولاد فقط، ولم يكن من الرجال غير حسين عبد الناصر، شقيق جمال، وهو زوج ابنة عبد الحكيم، ومحمد عزب زوج ابنته الأخرى»[١].

وطريقة استقالة عبد الناصر وعودته عنها تقودنا إلى سؤالين: الأول، هل كانت استقالة عبد الناصر تمثيلية قصد منها العمل على استعادة مركزه الذي اهتز نتيجة الهزيمة النكراء التي مُني بها؟ أم أنه اتخذ قرار الاستقالة والتخلي عن مركزه فعلاً، ولكنه رجع عنه لما رأى أمواجاً من البشر تطالبه بالعودة؟

والجواب من وجهة نظري أن الاستقالة كانت تمثيلية مدروسة بعناية، والدليل الخطاب الطويل الذي دغدغ فيه عواطف شعبه، ومختلف الشعوب العربية، والذي صيغ بعناية، وأُلقي بطريقة تثير العواطف، وإلا لو كان جديّاً في استقالته، شاعراً بخطئه، مدركاً بأن سنوات حكمه جلبت الويلات لمصر، ومزَّقت العالم العربي بدل أن توحِّده، لكان اكتفى بإذاعة بيان استقالة من عدَّة أسطر، ولكان تولَّى نائبه مكانه وفق الدستور.

---

(١) البغدادي، عبد اللطيف، مذكرات، م. س، ج٢، ص٣١٥.

ولا ريب أن الناس تأثروا، والشباب ثاروا، والغوغاء اندفعوا من دون وعي، ظنّاً منهم أنهم يكيدون العدو، ولكن لا ريب أيضاً أن المخابرات صاحبة السلطة ساهمت في تحريك الشارع هي وشباب الاتحاد الاشتراكي. ومع ذلك أقول: إن الذين خرجوا في الشوارع لا يمثلون غالبية الشعب ومثقفيه.

ويؤكد وجهة نظري ما أورده عبد اللطيف البغدادي، أحد ضباط ثورة ٢٣ يوليو، فهو يقول: «واستمعنا إلى خطاب جمال، وأعلن تنحّيه وترشيح زكريا محيي الدين رئيساً للجمهورية بدلاً منه، ولا نفهم دستورية تعيين زكريا. وتوقعنا، ولم يكن جمال قد انتهى من خطابه بعد، أن المسيرات الشعبية ستبدأ. وفعلاً سمعنا بعد انتهاء خطابه مباشرة الهتافات، ورأينا تحركات شباب الاتحاد الاشتراكي في الأتوبيسات واللواري رغم الظلام الذي يخيم على المدينة لحظر الإنارة، ورغم طلقات المدفعية المضادة للطائرات، فاستنتجنا من هذا الذي يحدث أن الأمر مدبَّر ومرتَّب من قبل أن تتحرك المنظمات وتطالب ببقائه»[1].

والسؤال الثاني: هل كان على عبد الناصر أن يتنحى؟ والجواب: نعم؛ لأنه أخذ فرصة كافية وحكم بشكل فردي، وأعطاه الشعب تفويضاً عامّاً وحريَّة في التصرف، وكانت النتيجة كما رأينا. وشعب عظيم كشعب مصر، عريق في تاريخه وحضارته، ألا يستطيع أن ينتج قائداً آخرَ؟! وهل أصيب الشعب بالعقم في زمن عبد الناصر؟!

لقد أظهرت الحرب خواء الأنظمة العربية، وتخلُّف جيوشها وقياداتها، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن بطولات فردية كثيرة ظهرت في مختلف الجبهات، أثبتت أن الجندي السوري، والجندي العربي، مقاتل شجاع مستعد للتضحية بنفسه دفاعاً عن أرضه. ولكن ما حصل أنه لم يُسمح لتلك الجيوش بالقتال. ولو أن القيادات ثبتت ولم ينتبها الذُّعر والخوف من السقوط لاستمات الجنود في القتال، ولخاضت الشعوب القتال مع جيوشها في حرب شعبية أنهكت العدو وخيَّبت آماله.

وقد نُشر في كثير من الكتب أن العدو كان يخشى الهجوم على الجولان.

---

(١) البغدادي، عبد اللطيف، مذكرات، ج٢، ص٣٠١.

«يروي الجنرال إسحاق رابين ـ رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وقتها ـ في مذكراته قصة قرار الهجوم على سورية واحتلال مرتفعات الجولان على النحو التالي:

ومساء يوم الخميس ٨ يونيو كنّا في هيئة أركان الحرب، وبحضرة وزير الدفاع الجنرال ديان، قد ناقشنا ما إذا كان مناسباً أن ننتهز الفرصة السانحة ونصفي الموقف مع سورية، ولكن الجنرال ديان عارض في ذلك معارضة شديدة، وتقرَّر الأخذ برأيه.

وعلى هذا كانت المعارك في رأينا قد انتهت على كل جبهات القتال، وتقرَّر أن تقبل إسرائيل قرار مجلس الأمن القاضي بوقف إطلاق النار، واستأذنتُ أن أذهب لأنام بعض الوقت، فلم أكن قد نلت أي قسط من الراحة في الواقع منذ إغلاق خليج العقبة.

وفي الساعة السابعة صباحاً دقَّ التلفون بجوار فراشي، وكان المتحدث هو عزرا وايزمن رئيس هيئة العمليات، وإذا به يُخطرني أن الجنرال ديان جاء إلى مقرِّ رئاسة أركان الحرب في الساعة السادسة صباحاً، واتصل تلفونيّاً بـ «دادو» ـ الجنرال دافيد اليعازر قائد الجبهة الشمالية ـ وأصدر إليه الأمر بالتقدم إلى مرتفعات الجولان فوراً.

وهرعت إلى مقرِّ رئاسة أركان الحرب، ولم أستطع أن أحصل من وزير الدفاع على تفسير للأسباب التي رأى بناءً عليها أن يغيِّر رأيه من النقيض إلى النقيض في ظرف ساعات من الليل، وكان وايزمن يشاركني دهشتي...

وأما الجنرال ديان نفسه فقد كتب في مذكراته، قصة حياتي:

«إن السوريين قاموا في الأيام السابقة من القتال بهجوم لم ينجح ضد مستعمرة واحدة، ثم لجؤوا إلى إطلاق مدافعهم على إحدى مستعمرات الجيش. وعندما درست الموقف بعد قبولنا لوقف إطلاق النار، وجدت أنه قد يكون من الملائم لنا ألا نترك الجيش السوري مصدر إزعاج لا مبرر له بعد أن انتهت مصادر التهديد على الجبهة الجنوبية، وبعد وصولنا إلى القدس، ولهذا قررتُ أن الفرصة لا يجب أن تضيع في شكليات قرار وقف إطلاق النار، وهذا ما دعاني إلى تغيير رأيي».

والواقع أن إسرائيل كانت تحلم باحتلال الجولان، ولكنها تعرف تحصيناته، وتعرف بسالة الجندي السوري، ولذلك تلكأت في مهاجمته. والذي لم يذكره الجنرال ديان، وربما يعرفه رابين ووايزمن هو أنه في ذلك اليوم سرت شائعات قرار الانسحاب من الجبهة السورية، وانسحب بعض الضباط، وأشاعوا أنه صدرت أوامر من القيادة بالانسحاب كيفيّاً[1]. وهذا ما شجَّع إسرائيل على التقدم وفق خطط موضوعة مسبقاً، وساعدها على إنجاز مهمتها بيان سقوط القنيطرة رقم ٦٦ قبل سقوطها بكثير.

قصة ليبرتي

ذكرنا أن إسرائيل كانت تخطط للاستيلاء على أراضٍ جديدة وتوسُّع إقليمي يضمن لها حدوداً قابلة للدفاع عنها، وبخاصة أنها كانت شبه منقسمة في منتصفها شمال القدس بحيث تستطيع المدافع بعيدة المدى أن تصيب تل أبيب وناتانيا من ذلك اللسان الناتئ في الأراضي المحتلة. وأن جونسون رئيس الولايات المتحدة كان ناقماً على عبد الناصر، لتمرُّده، ويسعى لتحطيمه والتخلص من دعوته الثورية ومحاولاته السيطرة على منابع البترول، وإزعاجه المستمر لحلفاء الولايات المتحدة في المنطقة الذين يؤمِّنون استمرار تدفُّق البترول إلى الغرب.

وقد توافقت مصلحتا الولايات المتحدة وإسرائيل على تحطيم الجيش المصري والتخلص من عبد الناصر، وأمَّن جونسون لإسرائيل كل ما تحتاجه من دعم سياسي وعسكري لتقوم بعدوانها، ولكنه كان حريصاً على عدم إغضاب حلفائه في المنطقة، وعلى العرش الهاشمي، فالملك حسين حليف يعتمد عليه، على عكس عبد الناصر.

وربما كان جونسون لا يمانع بأن تقوم إسرائيل بتسوية حدودها مع الأردن، وبخاصة أن الملك دخل في تحالف مع مصر. ومع ذلك ففي الإدارة الأمريكية مراكز قوى لا تطمئن لإسرائيل ولها مصالح بترولية، وكذلك فإن الولايات المتحدة مشهورة بالتجسس على حلفائها وأعدائها، وتسعى أن لا

(١) مصطفى، خليل، سقوط الجولان، م. س، ص٩٣.

يغيب عنها أي حدث في العالم، وهذا ما دفعها إلى إرسال باخرة تجسس إلى المنطقة مجهزة بأجهزة متقدمة ترصد تحركات الجيوش المتحاربة وتسجل اتصالاتها وتحلِّلها.

وحدَّدت لها القيادة مهمتها، ومكان تمركزها في المياه الإقليمية تجاه الشواطئ الفلسطينية، فوصلت إلى مكان تمركزها قادمة من إسبانيا ظهر يوم ٥/٦/١٩٦٧م، وبدأت مهمتها من دون أن تشعر بها إسرائيل.

وكانت ترسل تقاريرها إلى الإدارة الأميركية، مؤكدةً المعلومات التي كان يبلِّغها الملك حسين إلى تلك الإدارة عن تقدُّم إسرائيل في أراضي الضفَّة، ويطالب جونسون بالتزامه بوعوده للحسين بأن لا تحتل إسرائيل الأراضي الخاضعة له. وكانت إسرائيل تتقدَّم وتكذب، ولمّا انتبهت إلى ليبرتي، وتأكدت أنها مصدر معلومات واشنطن، لم تتورع أن تتخذ قرارها بتدمير ليبرتي وإغراقها بمن فيها. وعرفت الولايات المتحدة بالقرار الإسرائيلي فأمرت ليبرتي بالابتعاد، وقبل تأمين حماية لها لاحقتها الطائرات الإسرائيلية وزوارق الطوربين وقصفتها، فقتلَتْ ٣١ من بحارتها والعاملين فيها، وجرحت ٥٤، وظنَّت أنها قضت على قسم التجسس في الباخرة... وأرسلت وزير خارجيتها أبا إيبان إلى واشنطن ليتلافى أي تدهور في العلاقات بين البلدين، ويقدِّم اعتذاراً عن خطأ وقعت فيه القوات الإسرائيلية، وأنها لم تعرف هويَّة الباخرة. وهو لم يكن بحاجة إلى السفر، ولا للاعتذار الشكلي؛ لأن أخطاء إسرائيل وتجاوزاتها كلها «مغفورة» في الولايات المتحدة، ولأن جونسون كان فخوراً بما حقَّقه عن طريق حليفته إسرائيل.

وما زالت إسرائيل تحتل القدس لغاية كتابة هذه الأسطر سنة ٢٠١٥م.

نظرة في نتائج حرب ٦٧

يلاحظ المتتبع لمجرى الأحداث وسير العمليات الحربية أموراً مهمة، نذكرها لتكون عبرةً للأجيال القادمة، ولن أستطيع حصرها كلها، ولكن أهمّها من وجهة نظري هي الآتية:

١ ـ معظم الأنظمة الديكتاتورية غالباً ما تفشل في حروبها؛ لأنها لا تتمكن من كسب ثقة شعوبها، ولأن الاحتفاظ بالسلطة عندها أهم من أي شيء آخر، حتى من الأرض.

٢ ـ لا يمكن لأي دولة عربية أو مسلمة الوثوق بوعود الغرب، فكل تاريخه مع العرب والمسلمين توريط وخيانة.

٣ ـ الحرب علم كغيره من العلوم، وللقيادة أهلها، ولم يكن وزراء دفاع العرب بمستوى دايان، ولم يكن ضباطهم مؤهلين أو مختارين بحسب كفاءاتهم؛ بل بحسب ولاءاتهم.

٤ ـ للقيادة السياسية دورها الذي يفوق دور القيادة العسكرية، وعلى الأُولى أن تدرك إمكاناتها بدقَّة وتؤمِّن مستلزمات الحرب، والوضع الدولي، وتختار مكان المعركة وزمانها بالتنسيق مع القيادة العسكرية.

٥ ـ حضَّرت إسرائيل للحرب قبل وقوعها بسنوات، وساعدها الغرب، فقد صُفّيت الجيوش العربية القوية من ضبّاطها الأكفاء في سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة، ضمن حلقة الصراع على السلطة في البلاد العربية المؤهَّلة للحرب وللتوازن الاستراتيجي مع العدوِّ.

٦ ـ تبيَّن أن للمخابرات والتجسس على العدوِّ دور مهم لا يقلُّ عن أهمية التدريب وإتقان فنون الحرب، وقد تبيَّن من المعارك أن العدوَّ كان يميّز بين خزانات الوقود المزيَّفة والحقيقية، ويطَّلع على أوامر العمليات وقرارات القادة

حين صدورها، فهو عرف بأوامر الانسحاب من سيناء التي صدرت للجيش المصري، واستغلَّها، وعرف بالانسحاب من الجولان والفوضى التي سادت في أوساط القيادات والعساكر واستفاد منها.

٧ ـ كانت القيادة العربية الموحدة قبيل الحرب خرافة قُصد منها تخدير الرأي العام العربي، وليس التحضير للحرب.

٨ ـ تبيَّن أنه كان للاتحاد السوفياتي مصلحة في الحرب، ولم يهتم إلا بمصلحته، بغضِّ النظر عن نتائج تلك الحرب على العرب، فأشاع موضوع الحشود على الجبهة السورية. وقد نظر العرب إلى الاتحاد السوفياتي صديقاً، ونظر إليهم زبوناً يشتري السلاح.

٩ ـ كان الحكّام العرب ينادون بوحدة الموقف العربي، ولا يفعلون شيئاً لتحقيقها، بل كان النظام السوري يسعى لتخريب أي تقارب بحجة تقدُّميته ورجعية غيره، ووطنيته وتبعية الآخرين.

١٠ ـ لم يكن التفوّق الإسرائيلي بحجم السلاح ونوعيته، بل تجلى في مقدرة القيادتين السياسية والعسكرية وحُسن التنظيم، مقابل فوضى وتخبُّط...، والتفوّق في بعض مواصفات طائرة الميراج يومها لا يعني تفوّقاً عامّاً في نوعية السلاح.

١١ ـ العدوُّ الإسرائيلي غانية مدلَّلة على قلب الإدارة الأميركية، ما يجعلها لا تلتزم بتعهُّداتها لها، ولا تلبث الولايات المتحدة أن تغفر لإسرائيل تجاوزاتها.

١٢ ـ احتلت إسرائيل أراضٍ تفوق مساحتها الأصلية بستِّ مرّات، وغدت لها حدود يمكن الدفاع عنها بسهولة، وقوة إقليمية يُحسب حسابها.

١٣ ـ لم تقاتل الجيوش العربية، ولم يُسمح للشعوب بالقتال، بل فرض القادة السياسيون الحرب، وخسروها، وفرضوا وقف القتال ورضوا بالذلِّ والهوان.

١٤ ـ تبيَّن أن شعارات التقدمية والمقاومة، وتقسيم المواطنين إلى تقدُّميين ورجعيين لا تفيد، بل تضرُّ حتى المتاجرين بها، وعندما تُهدَّد الأوطان فالمواطنون كلهم سواء في الدفاع عنها، وهكذا وجدنا أن الجيش الأردني كان

أكثر مَن أبدى بسالة في القتال، واستماتَ في الدِّفاع عن أرضه، وتكبَّد خسائر في الرجال أكثر من غيره نسبةً إلى عدد السكان.

وأما الناحية الإيجابية الوحيدة التي يمكن للمراقب أن يلحظها فهي أن إسرائيل لم تستطع نتيجة كسب الحرب أن تجبر العرب يومها على الاستسلام وتوقيع معاهدة صلح معها، فلم تكبَّل الأجيال القادمة باتفاقات ومعاهدات.

الفصل الثامن

وانقشع الغبار

إعدام سليم حاطوم

عندما بدأت إسرائيل عدوانها في ٥ حزيران، دبَّت الحميَّة في صفوف السوريين خارج سورية، وبخاصة الضباط المسرَّحين، ومنهم مَن عاد إلى سورية، ومنهم من طلب الموافقة على عودته، وكان من العائدين عادل عيسى، الذي عاد من تركيا عن طريق شمالي سورية، وسليم حاطوم وجماعته الذين كانوا في الأردن يعدّون قبل الحرب لتغيير النظام، وعادوا يوم ٧/٦/١٩٦٧م.

وعندما توقَّفت الحرب، وشعر الناس بحجم الكارثة، رأى بعضهم في الأمر خيانة، بينما رأى آخرون أن النتائج أكبر من الخيانة، إن لم تكن هناك خيانة... فحصل هياج شعبي ووُزِّعت مناشير، وبدأ المثقفون والضباط المسرَّحون يعقدون الاجتماعات ويتداولون بما يجب عليهم فعله، وبخاصة أن أركان النظام لم يستقل منهم أحد، ولم يحاسَب أحد على إهماله. وعلى الرغم من الهزيمة النكراء اعتبروا أنفسهم منتصرين لتمكُّنهم من إنقاذ النظام وخسارة الأرض، التي تذهب وتعود، بحسب تصريحاتهم (!). فوجد النظام ضالَّته، لإشغال الشعب عمّا حلَّ بالبلاد، بتحميل مسؤولية الهزيمة للبعثيين اليمينيين كما يسمِّيهم، والرجعيين، والاستعمار، وذيول الاستعمار، والجبهة الوطنية الدستورية...

وهكذا بدأت المخابرات حملة اعتقالات واسعة، وكان من بين المعتقَلين سليم حاطوم وجماعته، وعدد من الضباط المسرَّحين وبعض المحامين والمثقفين، ومن بينهم المحامي عبد الرزاق شركس الذي أشرت سابقاً إلى دعوته إلى الغداء في منزلي هو والضابط المتقاعد عبد الرحمٰن السعدي.

وشُكِّلَت لسليم حاطوم وبدر جمعة محكمة عسكرية، أترك لمصطفى

طلاس وصفها حتى لا يتهمني القارئ بالتحامل على ذلك النظام، أو بمحاباة سليم حاطوم وبدر جمعة، وبالمناسبة هما من متقدِّميَّ في الكلية العسكرية، ولم تجمعنا صداقة؛ بل معرفة. يقول طلاس:

«وفي مساء ٢٣/ ٦/ ١٩٦٧م، وبينما كنت في مقرِّ قيادة اللواء الخامس الذي تمركز بناءً على أوامر القيادة في (خان دنون) في مزرعة العجلاني، اتصل بي اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع، وقال لي: عليك أن تباشر على الفور بمحاكمة سليم حاطوم وبدر جمعة. وعندما استأذنته أن أقوم بتنفيذ المهمة في اليوم التالي؛ لأن الساعة كانت تشير إلى الثامنة والنصف ليلاً، وكنت مستغرقاً في كتابة مذكرة حول الدروس المستفادة من الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، وكانت الأفكار تأتيني من كل فجٍّ عميق... وكانت توجيهات اللواء الأسد حاسمة: عليك أن تبدأ عملك منذ هذه اللحظة؛ لأنك لا تعيش جوَّ رفاقنا في القيادة، فهُم في حالة خوف ورعب حقيقي على سقوط النظام...

وفي الساعة التاسعة والنصف عقدت المحكمة جلستها وبدأت باستجواب المتهمين سليم حاطوم وبدر جمعة، وكان موقفي صعباً للغاية، فبيني وبين سليم حاطوم خبز وملح وعشرة استمرت خمسين يوماً قبل تنفيذ حركة ٢٣ شباط، وبيني وبين بدر جمعة رفقة طفولة ومدرسة وجندية وسجن...

كان بدر جمعة في قفص الاتهام رجلاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى على عكس زميله سليم حاطوم الذي طلب مني أن أعطي الأمر إلى المحققين أن يتوقفوا عن ضربه على أذنيه لأنه لم يعد يسمع... وأشار إلى القطن الذي يملأ أُذنيه، وبحركة إيمائية فهمت منه أن النساء لا يمكن أن تقترب منه وهو فاقد السمع...

وبعد أن انتهيت من استجواب سليم حاطوم الذي بدا منهاراً وغير متمتع بكفاءة قواه العقلية، بدأت باستجواب زميله بدر جمعة... وسألت المتهم بدر عن صيغة الحكومة التي ستشكلونها لو نجحت المؤامرة؟ فأجاب ستكون حكومة سورية مختلطة تمثِّل الأحزاب السورية كافة...

وخلافاً لأصول المحاكمات قلت: إن جلسة المحكمة مفتوحة ومستمرة ومتواصلة، ورفعت الجلسة عشر دقائق للاستراحة...

ومن مكتبي المؤقت في المسرح العسكري، هتفت إلى اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع، وأعطيته خلاصة عن الموضوع، وأعلمته بقراري بالمتابعة حتى صدور الحكم، وسوف أنفِّذ قرار المحكمة بعد صدوره مباشرةً وعلى مسؤوليتي، وغداً سأعرض الإضبارة على رئيس الدولة الدكتور نور الدين الأتاسي، وآخذ توقيعه بتصديق الحكم. . .

وتابعت المحكمة إجراءاتها القانونية حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وصدر الحكم باسم الشعب العربي السوري بإعدام المتهمين سليم حاطوم وبدر جمعة بعد تجريمهما بجريمة الخيانة العظمى. . . وكلَّفت المحكمة أحد أعضائها، وهو الرائد رئيف علواني بالإشراف على التنفيذ، وأنجز المهمة في حقل رمي سجن المزة العسكري فجر يوم ٢٤/ ٦/ ١٩٦٧م»[1].

وبعد تنفيذ حكم الإعدام وإذاعته، وزيادة الهجوم على الأردن والاستعمار وأذناب الاستعمار. . . بدأ الرأي العام ينشغل بأخبار المحاكمات والإعدامات والاعتقالات التي شملت عدداً كبيراً من المواطنين الذين كانوا يتحدثون عن الهزيمة والانسحاب من الجولان وخيانات الحكّام أو تخاذلهم. . .

ويلاحَظ من محاكمة سليم حاطوم بحسب رواية أهل البيت ورئيس المحكمة أمور لا تخفى عن القارئ:

١ ـ انهيار القيادة، وتماسك الأسد، فإن لم يكن ما ذكره طلاس نفاقاً؛ لأنه ألَّف الكتاب في عهد الأسد، ففي ذلك دلالة على معرفة الأسد بالمخطط المرسوم.

٢ ـ إن الأسد وزير الدفاع هو الذي طلب من طلاس المحاكمة فوراً، ولا أعلم إن كان ذلك من صلاحياته أو من صلاحيات غيره، ولكن طريقة الطلب توحي بضرورة قتل حاطوم وبدر جمعة، لأسباب قدَّرها أو أوحي إليه بها، أو معلومات حصل عليها.

٣ ـ إن المتهمين، وبخاصة سليم كان يخضع للضرب والتعذيب أثناء

---

(١) طلاس، م. س، ج٢، ص٨٣٩ وما بعدها. وقد اختصرت الكلام الخارج عن الموضوع ووضعت عدَّة نقاط للإشارة إلى الحذف.

المحاكمة، حتى طلب من صديقه، رئيس المحكمة، بطريقة يفهمها أن يأمر بإيقاف ضربه، فيالها من محكمة.

٤ ـ إن رئيس الدولة لا حول له ولا طول، هو لعبة يتلاعب بها الضباط كما يشاؤون، لدرجة أنهم يعدمون مَن يشاؤون وينفِّذون الحكم ثم يطلبون توقيعه استكمالاً للشكليات، وربما إن لم يوقِّع ألحقوه بالمعدومين.

ويلاحَظ أن طلاس أراد أن يشوِّه صورة حاطوم ويُظهره جباناً رعديداً؛ لأنه رأس المؤامرة، ويطالبه بموقف رجولة وهو يتعرض للضرب والإهانة... ويعرف أنه سيُعدم بعد ساعات. وحاول أن يثير عليه بعد إعدامه بسنوات أهل دمشق خصوصاً، والسنَّة عموماً، فأضاف حاشية قال فيها: «عندما كان الشيخ صلاح عقلة يلقِّن سليم حاطوم قبيل تنفيذ الحكم، قال له: انظر إلى الشرق، ماذا ترى؟ فقال له: مآذن الجامع الأموي فقال له: لقد بقي الجامع الأموي وذهبت أنت. وكان الشيخ صلاح يغمز إلى دخول حاطوم غير المهذب إلى الجامع بعد الإضرابات التي أعقبت قوانين التأميم».

صحيح أن سليم حاطوم انتهك حرمة المسجد الأموي، ودخله بمدرعاته، ولكن هل كان وحده، ومن هي القيادة التي كانت وراءه وحمته، وهل كان طلاس في عهد الأسد مهذباً في تعامله مع دور العبادة ومع روّادها، وهو الذي تباهى في يوم من الأيام على شاشات التلفزيون بأنه كان يوقِّع شهريّاً مئات أحكام الإعدام بعد تنفيذها.

ولصديقي بهاء اليماني رواية أخرى، وهو كان سجيناً في سجن المزة يوم إعدام حاطوم وبدر جمعة، بتهمة باطلة، وهي الانتساب إلى الجبهة الوطنية الدستورية. وشاهد مسيرهما إلى مكان التنفيذ، وسمع من العساكر الذين حضروه. قال: كان حاطوم عاديّاً، وطلب من الشيخ أن يُعلِّمه ما يجب عليه، وردَّد الشهادتين، وكان طلبه الأخير ألا تُطرَد زوجه وهي معلِّمة مدرسة من الخدمة لكي تربّي أولاده، ولا تحتاج أحداً. وأما جمعة فقد رفض التجاوب مع الشيخ ورفض عصب عينيه. وذلك غير مستبعد منه، فقد عرفناه يساريّاً متطرفاً بعيداً عن الدين، أساء إلى الشعب كثيراً كما أساء حاطوم وعبد الكريم الجندي وغيرهما، وأمرهم جميعاً لخالقهم.